العــودة

هيثم نافل والي

الكتاب : العودة (رواية)

المؤلف : هيثم نافل والي

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٨

رقم الإيداع : ٥٩٦٩ / ٢٠١٨

الترقيم الدولي : I. S. B. N : 978 - 977 - 493 - 300 - 4

الناشر

شمس للنشر و الإعلام

٢٧ ش الثلاثين. برج الشانزليزيه. زهراء المعادي. القاهرة

ت فاكس : ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net



العــودة

رواية

هيثم نافل والي

إلى ملهمتي

رفيقة دربي...

كفاحي ونضالي في الحياة من أجل الحياة

زوجتي

هيثم نافل والي

ذنوبنا أطنان نجهل مصدرها ، والعُقد التي نحملها أضعاف ذنوبنا ، موبوءة بالذكريات ودجل التاريخ الذي حفظناه مرغمين في المدارس ، تلك التي تعلمنا فيها كل شيء إلا قيمة الإنسان الحقيقة كونه قبس من اللّه.

من لا يشعر بالألم لا يستطيع أن يحكم على الناس...

الهروب غير الهجرة ، وأبطال الرواية هربوا من وطن الطاعون !.

(١)

ما أن حطَّت أقدامهم أرض المحطة بعد رحلة قهر مخذولة موسومة بالعار بعد ذلك الموقف المخزي الذي تعرَّض له آدم أمام نفسه والناس وهو جالس بجانب زوجته أنهر في مقطورة القطار وقتما حطَّ عليه كالقدر المشئوم ذلك الرجل العنصري الألماني الأحمر مزاحمًا إياه يريد نهب مقعده الجالس عليه لأنه من أهل البلد والدار وصاحبنا الأخير غريب بعيد قادم من مدينة هانوفر يريد العودة إلى مدينة ميونخ التي سُجنوا وقدَّموا لجوءهم فيها قبل ذهابهم إلى كريم نسيب آدم.

وجوه متعبة أنهكها القهر والخذلان؛ لم يتصوروا بأنه سيأتي عليهم اليوم الذي يقفون فيه مثل هذا الموقف المجلل بالمهانة والقسوة... وما أن وطأت أقدامهم أرض المحطة حتى استقلوا سيارة أُجرة تنقلهم إلى مركز اللجوء الرئيسي في المدينة الذي هربوا منه قبل أكثر من شهر ونصف.

كان الوقت عصرًا؛ الشمس لم تغرب، الضوضاء حول بناية المركز كما تركوها لم تنقص مثقال ذرة، كل شيء يدور ويتحرك ويحدث صخبًا لا يُطاق... سلمّوا أنفسهم إلى رجل الحماية السمين الطافح بالدهن المنتصب بجذعه المتين ببذلته الزرقاء أمام البوابة يتقدمهم آدم وتتبعه أنهر ثم كمال الغارق في الصمت... أشار لهم دون أن يتعب نفسه بسؤالهم بالصعود إلى غرفة رقم ٣٢٣ حيث

التقديم واستلام مفاتيح الغُرف... هناك وجدوا موظفة تركية تتحدث العربية بطلاقة ، استقبلتهم بحنان شرقي وعلى شفتيها ابتسامة مضاءة يغلب عليها طابع المكر المحبب وهي تردِّد على مسامعهم:

- عليكم بقول الحقيقة.

تدخلت أنهر تسألها كعادتها بجدية صارمة:

- أرجو أن توضحي قصدك؟

- أن تقولوا لقاضي التحقيق عندما يأخذ أقوالكم بأنكم ذهبتم إلى هانوفر دون إخطار بلدية المدينة ، وبأنكم قدَّمتم اللجوء هنا من قبل.

كالسهم عندما ينطلق نحو هدفه:

- بالتأكيد... هذا ما قررنا فعله دون لف أو دوران.

- هكذا أحسن.

أجابتها التركية بلهجة غلبها الخبث ينقصها الصدق.

همس آدم بأذن زوجته بقلب موخوز بالحسرة مرتاعًا:

- وهل هذا سيكون من صالحنا؟

- ليكن ما يكون ؛ المهم أن نقول لهم الحقيقة كاملة ، لماذا ذهبنا ولماذا رجعنا.

كمال كان قلقًا، متعبًا ومنهارا، هو لم ينبس ببنت شفة، ظل الوقت بطوله ساكتًا يتنصت... وبعد لحظة صمت علت المكان ؛ كسرت أنهر الهدوء الذي خيم فجأة بسؤالها لصاحبة الابتسامة الماكرة:

- متى سيأتي قاضي التحقيق؟
دون أن تطرف كمن تستدركه الذكريات فجأة، هدلت:
- لن يأتي أحد.
- كيف يعني؟... قال ذلك آدم متدخلاً وأردف: وأين سنقضي ليلتنا لو لم يقابلنا أحد؟
- لا أحد الآن يستطيع محادثتكم؛ الوقت الرسمي للعمل قد انتهى، عليكم الانتظار حتى الغد للاستجواب.
همست أنهر بصوت دافئ حنون من كل قلبها:
- لو سمحتِ، هل لكِ أن تخبرينا، أين سننام إذن؟
- سأمارس حقي في العمل؛ أعني، سأعطيكم مفتاح غرفة جماعية تسكنها أكثر من عائلة يعانون الظرف ذاته بانتظار غدهم... ثم طفقت مستدركة: أكثر من هذا لا أستطيع أن أفعل لكم شيئًا، صدقوني، أعتذر منكم... وابتسامتها لم تفارق شفتيها... مدت يدها في درج طاولتها، أخرجت منه قصاصة ورق مكتوب عليها رقم الغرفة وعنوان المبنى وأعطتها لأنهر التي كانت تقابلها في جلستها أمام طاولتها وآدم خلفها واقفًا على رأسها بجانبها مع مقبوض الصدر كمال العازف عن الكلام الذي كان يمثِّل دور التمثال طوال الوقت وهي تردد على مسامعهم: توجد ثلاث أَسِرَّة قريبة من الرُكن مفروشة، يمكنكم استعمالها... بعد أن أشارت لهم عن مكان الغرفة وموقعها من البناية.

• • • •

لم يكن لهم من خيار كصورة لفقها الخيال ، قبلوا بنصيبهم ، انسحبوا من الغرفة كأسرى حرب ساعين نحو هدفهم الجديد بقنوط مشلول لا ينطق إلا بالتعاسة وأرجلهم بالكاد تحملهم يجرجرون أجسادهم خلفها.

الغرفة كانت في الطابق الأرضي مطلة على فسحة جانبية من البناية وخلفها تسكن الحديقة الغناء المترامية الأطراف، بابها من حديد كأبواب السجن، نوافذها لم تعد بيضاء، مخلوعة الإطارات مكسورة الزجاج، صُفَّت فيها الأسِرَّة بشكل متناسق الواحد بجانب الآخر كقضبان السجن دون أي حواجز تُذكر ، يعصف فيها الضجيج وتتداخل الأصوات التي كانت تُطلق بلغات متعددة أكثرها شناعة التي لا تعرف لها رأس ولا ذنب الغجرية التي يرطن بها قوم بثياب واسعة، رثة تكنس الأرض لطولها؛ استحلت تلك العائلة ثلثي الغرفة وأسرَّتها، وتُرك الباقي لرجل مغربي له رأس الجرادة منطوي على نفسه، شره التدخين، ممصوص الوجه أصفر وشعر رأسه مجعد ككرات التنس المهملة، الملقاة والمتروكة في وحل منذ أكثر من ربع قرن، ومن يراه وهو على هذه الصورة البائسة يتوقع بأن عقله لا يفكّر كقدمه، ورجل تركي يدعى آزار، هادئ، رزن، بشوش، جميل الطلعة بشاربين غليظين كقروي، يتحدث العربية كأهل مدينة الموصل ولفظهم لحرف القاف كثيرًا ، مع زوجته السمينة المتينة التي لا تنقطع عن الكلام أبدًا... الإنارة خافتة يشعها نيون مريض بالوهن مشنوق بالسقف ، الأرضية

وسخة يتصاعد منها رائحة زنكه تزكم الأنوف كرائحة البول البائت.

وقفوا مخذولين، انبهروا بالمنظر الكريه، تراجعت أنهر للحظة مخنوقة بالعبرة، لم تستطع أن تدخل، وقفت على الباب ساهمة، لم تطاوعها نفسها الرقيقة أن تدخل هكذا غرفة مشتركة مع أناس لا تعرفهم، تجهلهم كل الجهل، لا ينتمون إلى عائلتها، كيف ستنام أمامهم؟ تجربة لم تمر بها من قبل، شعرت بأنها في وضع أقسى من الموت ذاته فتحجرت عند الباب كفاقد الوعي ولم تدخل... آدم أمسك يدها يشجعها ويرجوها للتماسك وقبول أمر الواقع، بينما كان رد فعل كمال يختلف تمامًا، دخل كهبوب الريح سريعًا، وجد سريرًا فارغًا استحله ومدَّد جثته دون اعتبار لأحد كسابح في الظلمات غارقًا في نوم عميق بلا أحلام، ليس له أخر، وكأن ما يجري ويسري حوله لا وجود له مثل رجل ينتظر إعدامه عند الصباح!

ارتدَّت أنهر إلى الوراء، طلبت من زوجها الخروج إلى الفضاء الرحب بعيدًا عن هذا الجو الملغم بالصخب، وافقها الرأي... انسحبا بهدوء تاركين كمال يكمل نومه... وفرَّا هاربين خارج المبنى.

عندما رجعا كانت الساعة تجاوزت العاشرة ليلاً، قلقها على أخيها هو الذي دعاها للعودة، هي لا تريد أن تبيت في هذه الغرفة المشتركة، لا تستطيع أن تتصور بأنها ستتمدد وهناك من الرجال

والنساء من ينظرون لها بطرف خفي ، لكن خوفها على كمال جعلها تعود... وجداه في الممر الضيق الذي يفصل الغرفة عن بوابة المبنى الرئيسي يلوب كشخص متأثر بالجراح ، راكضًا نحوهما، سائلاً مستفسرًا:

- أين كنتما؟ سألت من كان في الغرفة ولم أعثر على جواب يدلني عليكما !. كيف تتركاني وتذهبان دون أن تخطراني ؟ هه... قولا شيئًا ، لا تنظران لي هكذا... وظل يهذي كالمحموم.

قاطعته أخته بهدوء:

- لم نشأ أن نوقظك من النوم؛ رأيناك متعبًا ففضلنا تركك بعد أن قررنا شم الهواء النقي غير هذا الموبوء بالمرض، المخلوط بالقهر والحرمان.

- حسنًا ، ماذا ستفعلين الآن ؟ أقصد ، كيف ستنامين وسط هؤلاء الغرباء؟.

صوَّب نظره إلى نسيبه هامسًا بسخرية حانقة:

- قل كلمة أنت، ما لي أراك ساكتًا كأنك موافق على ما يحدث؟...

بإرادة واعية:

- وماذا أستطيع أن أفعل وأنا في حالة كهذه؟ هه.. قل؟ هل تتحرج؟ هل نذهب ونبحث عن فندق للمبيت لليلة واحدة؟ وحتى لو وجدنا ما يناسبنا وأسعفتنا لغتنا الإنجليزية ، ما هي الأوراق التي تثبت هويتنا نقدمها لهم للحجز ؟ هل تملك جواز سفر ألماني وأنا لا أعرف؟ أم تقدِّم جوازك العراقي الذي نهبته الشرطة عندما ألقي

القبض علينا ساعة وصولنا محطة ميونخ قبل ذهابنا إلى هانوفر، أم أراك قد نسيت ما حدث؟ عجبًا والله... لماذا تتحدث عن أمور محسومة؟

تابع بعد برهة توقف:

- من الأفضل أن نذهب الآن لنتصل بكريم ونبلغه عن وصولنا، هذا أجدر لنا من نقاش مسألة عقيمة...

وانطلقوا بنشاط خائب مليء بالحسرة هجره المرح منذ زمن ليس بالقصير نحو ناصية الطريق للاتصال بكريم...

• • • •

لم تستطع أنهر أن تغمض عينيها للحظة واحدة طوال الليل؛ كانت تشعر بأن الرجل المغربي الذي يشاركهم الغرفة لم تنزل عيناه الوقحتان عنها لحظة واحدة، في حين ظلَّ الغجري المنقّر في كل شيء حتى ثيابه تتقزز منه، صاحب الجوقة الكبيرة بكرشه المتدلي أكثر الساكنين وقاحة، يتنطط بلا تحرج متعمدًا التقرب من سريرها، يُشبع نظراته منها كأنه ينوي التهامها وهو يردِّد أغنية رومانية على لسانه الملتوي وكأنه يتسلى بتثخين شعور الآخرين بالجراح... في حين ظلَّ آدم يراقب الموقف دون أن يشترك بحركة أو كلمة جالسًا بقرب زوجته على سريرها لا يعرف النوم طريقًا لعينيه هو الآخر، عكس نسيبه كمال الذي غطَّ في نوم لا آخر له،

حتى انبثق الصباح وتوهجت الشمس خجلة ليبدأ النهار يتمطى كالريح البسيط.

وكما أشارت لهم المترجمة التركية؛ ذهبوا يصطفون أمام غرفة قاضي التحقيق للبدء بأخذ أقوالهم دون فطور... تجاوزت الساعة العاشرة صباحًا وهم مازالوا في وقفتهم لم يتغير شيء ولم ينادِهم أحد... تذمر كمال يخاطب أخته لائبًا:

- أنا جائع يا أنهر؟

- أعرف هذا دون أن تقول، تحمل حتى نخلص مما نحن فيه...

لم يرق له جوابها، مماحكًا:

- لماذا تتحدثين معي هكذا بخشونة؟

برقة صادقة كعادتها محاولة منها أن لا تظهر له تعبها وقنوطها:

- أعتذر منك يا حبيبي، كما ترى منذ يوم أمس ونحن لم نذق الراحة، عليك أن تتجمل بالصبر، أرجوك...

- حسنًا... قال لها ذلك وهو يغيِّر من وضع وقوفه.

سمعوا أسماءهم طالبين منهم الدخول.

كان قاضي التحقيق رجلاً طويلاً عريضًا أحمر الوجه ذا صلعه برَّاقة، متعجرف الهيئة شرس اللهجة، يجلس خلف طاولة غامقة اللون وأمامه مجموعة كبيرة من الملفات، وبجانبه تجلس الموظفة التركية التي التقوا بها البارحة تبتسم برشاقة تنم عن عاطفة لا يحزر المرء نوعها...

سألهم مباغتًا بصوت متقطع كثغاء شاة، والمرأة التركية تترجم:

- أين كنتم؟... لدي معلومات تثبت بأنكم قدَّمتم اللجوء هنا قبل أكثر من شهر ونصف ثم غبتم لا أحد يعرف عنكم شيئًا.
تنحنح آدم قبل أن ينطق، ثم ردَّ كمن يذعن لقدره مختصرًا كما اتفقوا:
- كنا في هانوفر؛ هناك تابع محامٍ قضية لجوئنا ولم ينجح، فعُدنا.
- إذن تعترفون بأنكم خالفتم قوانين المدينة بعدم السماح بالسفر دون إذن من بلدية المدينة؟
نبرت أنهر بوعي واضح وإرادة كاملة دون تردد:
- نعترف.
التفت القاضي إلى المترجمة هامسًا لها بكلمات لم تترجمها، ثم شرح لهم ما ينتظرهم من عقاب:
- ستدخل هذه المخالفة في ملفاتكم الشخصية وتبقى مخزونة فيها وتدفعون غرامة مالية قدرها ثمانون ماركًا للشخص الواحد جراء السفر دون ترخيص رسمي ويمكنكم دفعها بشكل أقساط شهرية.
تدخل كمال للمرة الأولى في الحديث:
- عن نفسي؛ أنا موافق.
وهكذا قال آدم، وتبعته أنهر...

قدَّم لهم لائحة بالقوانين المتبعة مترجمة إلى لغات عدة منها العربية، ثم سلمهم مفتاح واحد مشنوق برباط بلاستيكي أزرق بعد أن كافحت أنهر بأن تكون الغرفة مشتركة لهم الثلاثة ورفضت كما من قبل أن يسكن أخوها بعيدًا عنها بعد أن شرح لهم مواعيد

استلام صندوق الأكل والشرب المعلب وزيارة الطبيب المختص في المركز بانتظار تسفيرهم إلى محل سكنهم الجديد الثابت ووقعوا على ما تم شرحه والاتفاق عليه.

(٢)

أعجب أمر الناظر أراه متأملًا كأعمى لا حيلة له
ومن يحب البشر لابد له من غضِّ النظر

اعترف بأن عقلي غادرني ما أن اقتنعت قسرًا بأن أسكن وهم الحياة، الغربة ليست هي الحياة الموعودة ولا يمكن لها أن تكون، منْ يغادر وطنه عليه ألا يسعى للبحث عن وطن جديد ، الوطن ليس التراب ولا الأهل والأصحاب ، ولا حفلات العرس ، ولا الأسواق ولا الزقاق ، بل كل هذا مضافًا له المدرسة والسوق والكتب والمقهى والضحكة من القلب ودموع الفرح الصادقة النقية هذا هو الوطن الذي أعرفه ، فإن غاب غابت الحياة وانطفأت شموع العمر ، علينا إذن أن لا ننسى وأن لا نضحك على أنفسنا مهما جربنا وجرينا...

آه... يا وطن يا أبو المِحن ، كل الشعوب مُصابها غير مصابك ؛ لوعة وشجن لا داء له غير الحرق علّه يداوي فينا جرح الخنجر المغروز في صدر الزمن... مازلت أتذكرك ، وسط الزحام وبرق الأحلام ، بين الدربكة والأغنية النشاز ، وسط الضجة الوهمية ، بين كل الأمنيات المنسية ، أسألك وأنا أتحرق يا وطن ، كيف نلت من قلبي كي أمنحك كل هذا الحب ؟! وأنت ، نعم ، أنت... أناديك

بصرخة مكوية، ماذا أعطيتني لقاء حبي، وفائي وإخلاصي لك؟... جعلتني أتسلق أسوار الغربة قسرًا كهرٍّ جائع بحثًا عن سكن آمن أداري فيه جراحي مع منْ أحببت، زوجتي أنهر!، دفعتني عنوة، أبحث عن ظل غيمة، ظل شجرة، ظل كلمة صادقة أحتمي فيها من غدر زمانك، أتفرس بالوجوه لعلي أجد أهلي، وربما صحبي وأصدقاء العمر الذي اندثر؟ لماذا خلقك الله يا وطن بهذه القسوة كنعشٍ لا يفقه حزنًا ولا شجنًا؟... لم أعش بين أحضانك طفولتي، كبرت مع ألمي وأوجاعي، الفقر كان موعظتي وكل ندائي، معدتي الخاوية كانت تطحنني وأنا أداريها بالصبر ومرات أغنِّي لها أغنيات الأطفال السعداء لعلها ترحمني أو تنساني!... فجأة أصبحتُ شابًا خائفًا أفزع هاربًا من ظلي، أما عن كرامتي وإنسانيتي فلن أفضح نفسي أمامك يا وطن، أنت أدرى بما كان يفعله أزلامك، أصغر كائن فيهم يمرِّغني بالتراب قبل أن أنطق بحرف، وعندما رغبتُ دراسة الفن؛ رفضتَ، ليس لسبب، سوى إني لا أحب التحزب!...

هكذا كان آدم يكلِّم نفسه في سويعات تأمله ملتهب المشاعر دون أن يصرِّح بحزنه ذاك لأحد، ولا حتى لزوجته أنهر.

لم تكن الغرفة التي استلموها تختلف عن أختها التي باتوا فيها ليلة أمسهم إلا في حجمها، رقمها ٣٠٢ في نهاية الممر المظلم دائمًا من الطرف الآخر من إدارة المبنى تمامًا والذي لا يحده من جهة اليسار غير الفراغ المجاور لشركة "أجفا" لصناعة أفلام

الكاميرات المعروفة والمطلة على فسحة خضراء بجواره يعلو فناء عبارة عن نادٍ رياضي لأعضاء وأصدقاء معمل "أجفا" الذي دشنه آدم مرة واحدة يتيمة ضاق ويل العنصرية فيها فهرب منه دون رجعة بعد تلك المعاملة النجسة السيئة الفظيعة غير الإنسانية التي عاملوه بها الزملاء الرياضيون الذين يمارسون ما كان آدم يهوى؛ لعبة كرة المضرب "المنضدة"، كل هذا حدث، ليس لشيء إلا لأنه فقط أجنبي وشعر رأسه أسود.

صغيرة هي الغرفة التي تحمل رقم ٣٠٢ كزنزانة انفرادية، أربعة أسرَّة مواجهة لبعض؛ خلف الباب الحديدي اثنان، الواحد فوق الآخر، مواجهان بشكل متعمد الآخران، طاولة بيضاء من خشب مرصوفة بجانب الشباك المطل على الحديقة الغناء وأربعة كراسي متقوضة متهالكة متسخة لا تصلح للجلوس عليها... الحمام مشترك قذر كحمامات الطرق السريعة كما المرحاض لا يؤتمن استعمالهما، وهذا كان أول سبب في تراجع صحة آدم نتيجة إصابته بمرض جلدي بعد إقامته بأسبوع تقريبًا في المركز، لم يبرأ منه إلا بتدخل جراحي عانى منه بشكل مروع لجهله المطلق باللغة وقوانين المدينة، بالإضافة إلى عدم معرفته بالطرق والمواصلات التي تربط المستشفى بمركز اللجوء.

لم يطق كمال الصبر، صاح بعد أن وطأت قدماه أرض الغرفة العارية:

- سأموت من الجوع.

ثم بلهجة آمرة:

- هيا... لنذهب لاستلام حصتنا من الأكل والشرب.

أشفقت عليه أخته بعاطفة زاخرة بالمودة، قالت:

- هيا بنا يا حبة عيني.

كان الممر طويلاً كالمصران، اصطفوا في طابور لا يبدو له من نهاية بانتظار دورهم في الاستلام، ينتهي بالطابق تحت الأرضي الذي يتصل بفسحة كبيرة عبارة عن قاعة باردة يُحفظ فيها الأكل والشرب المعلب. اللاجئون يقفون متلاصقين تلاصق النقانق في شريطها؛ الواحدة بالأخرى، بالعشرات في انتظار ما يجود به المركز من طعام... روائح زنكة تبعثها الأجساد شبه المتعفنة التي لم تر الماء منذ أيام وأسابيع، بقايا أكل، نفايات ورق، علب فارغة متروكة على السلم الذي ينتظرون عليه، ضوضاء، ضجيج متداخل، لغات متعددة، نساء، رجال، أطفال، شيوخ وعجائز، صرخات، كلام بذيء، نكات وقحة فاحشة، كفر وشتم الآلهة، غناء لا تسمع منه غير النشاز، صرخة تصدر عن أحدهم بعد أن حاول شاب أفريقي أن يدخل عنوه قبل الآخرين، بكاء ناتج عن مشاجرة وقعت بين المرأة التركية السمينة زوجة آزار الساكنين في الغرفة الجماعية وأبو شاربة السوري كثير النفوذ بالمركز ولا أحد يعلم ماهية هذا الرجل إن كان من الأمن أو شخص يعمل لحساب جهة معينة يمثل فيها دور اللاجئ، فقد كان يسيطر على أغلب مواقع العمل المسموح بها للاجئين بأجور رمزية - وسنأتي

على ذكر تطور علاقة الأخير بآدم ومساعدته في الحصول على عمل داخل المركز مع زوجته - سبب المشاجرة كان رفض تلك السيدة التركية السماح لأبي شاربة بالمرور دون الانتظار مثل الآخرين، أبدت المربربة التي لا يهدأ لسانها من الحركة مقاومة تحسد عليها برزت من خلالها شخصيتها القوية الجبارة لمنع التجاوز، أُعجبت بها أنهر لموقفها الشجاع فصاحبتها فيما بعد رغم فقرها الثقافي، تصدت التركية له كوحش كاسر بإحساس جامد كإحساس سفاح متمرس على القتل تتحداه وتمنعه من النزول هكذا عنوة تأمره بصلابة وصلافة كضابط في الجيش التركي:

- خذ محلك في الطابور مثل الآخرين، هيا... لن أدعك تتقدم خطوة واحدة إلى الأمام، ارجع أعقابك واحترم نفسك وإلا سترى ما لا يرضيك.

زوجها يتوسل بها بلغته التركية ساحبًا كتفها نحو الوراء علَّها تسكت أو تخفِّف من لهجتها التي أصبحت فجأة عدائية كأنها تتوق وتتحرق للانتقام، وأبو شاربة متجهمًا، اعتراه الفزع كمن مسَّه شيطان بعد أن باغتته السمينة الشكيمة الصلدة ذات الإرادة القوية التي لا تعرف التراجع أو التقهقر، لا يعرف كيف يتصرف أو يرد عليها، وبعد أن تشوهت قسمات وجهه ألمًا عاد أدراجه مرتعشًا صاعدًا الدرج بسرعة نحو الطابق الأرضي الذي أتى منه متوعدًا التركية بالشرِّ كغبي أحمق باصقًا على الأرض بحرقة كادت تأتي على قلبه وهو يغمغم ويهمهم بكلمات - يقينًا - بأنه نفسه لم يعرف

وقتها تفسيرًا لها... والحقيقة عكس ذلك تمامًا، فقد كان أبو شاربة رجل طيب السريرة، رحيم القلب، محبًّا للناس ويقدم مساعدته حتى قبل أن يُطلب منه، هذا يعني بأنه لم يكن أحمقًا ولا حقودًا، لكن طبيعته القروية التي ترعرع فيها في سوريا ربما كان لها الأثر الأكبر في تكوين شخصيته المتزمتة الذكورية التي يجد نفسه فيها الأفضل والأقدر دون أن يحسب للأنثى حسابًا أو اعتبارًا لأنها الأقل شأنًا في رأيه.

احتكاك بالأجساد مقصود، محاولات لتفريغ شحنات مكبوتة، عرق ينصبب من الأبدان، حر لا يطاق وهواء فاسد لا يصلح للتنفس... كان هذا المشهد المقزز يتكرر كل يوم دون استثناء، وبعد أن نقلوا إلى سكن جديد آخر تحسروا على أيامهم هذه واعتبروها جنة طردوا منها!، ملوك في قصرهم مقارنةً بما آلت إليه ظروفهم!...

في الغرفة فتح كمال الصندوق الكارتوني بسرعة بعد أن لم يحتمل الصبر؛ وجد علبًا بأشكال وأحجام مختلفة لم ير مثلها من قبل مصنوعة من السلفيون الواقي للحرارة، كيس بلاستيكي شفاف مثقب للتهوية يحتوي على ست قطع صغيرة من الخبز صعب الهضم، يجعل المرء يلوك ويتعب فكاه دون أن يتقدم خطوة باتجاه المضغ الكامل، لعين كان خبزهم كأنه مصنوع من مادة بلاستيكية تفاحة واحدة، ثلاث أكياس صغيرة من الشاي المجفف وضعفهما من السكر، علبة صغيرة فيها زبده، وأخرى متوسطة فيها رز

مطبوخ ، ومثلها كانت في بطنها مرق أحمر وقطع من اللحم ، وكيس صغير فيه ملعقة بلاستيكية، شوكة وسكين.

لم يكذب كمال خبرًا، فتحها كلها بعد أن نشرها على الطاولة وبدأ بممارسة هوايته المفضلة؛ الأكل بسرعة كأنه في سباق مع أحدهم يتخبط بحركاته التي يأتي بها كسمكة على الجرف.

في بداية الأمر تردد آدم في الأكل، كان فاقدًا للشهية، وجهه مربد ينم عن استياء واضطراب ، نصحته زوجته بالانتظار قليلاً حتى تحضِّر شايًا... المطبخ يقبع في نهاية الممر ، عبارة عن حجرة وسخة مشتركة فقيرة الأجهزة لا تحتوي إلا على طبَّاخ صغير موضوع على طاولة خشبية مثبته بالجدار كطاولة الجزارين ، وحنفية ماء ، وحاوية للفضلات تبعث روائح مزعجة لا تُطاق... تذكرت بأنها لا تملك وعاءً تسخن فيه الماء ، هناك وجدت سيدة لبنانية تسعى لتسخين شيء ما ، اقتربت منها تسألها عن حاجتها لوعاء ، رحبت بها السيدة وطلبت منها الانتظار للحظة. غابت برهة ثم رجعت وفي يدها علبه معدنية كانت بالأمس القريب تحتوي على شيء ما معلب وبعد أن أفرغت من محتوياتها استعملت كوعاء ، قدمتها لها. اندهشت أنهر في بادئ الأمر لكنها سرعان ما استوعبت المحنة وقدَّرت الظرف. شكرت جارتها الجديدة بأصالة متفردة بها على معروفها. حُلت المعضلة، الإنسان قادر على تسخير الأشياء بشكل يجعله يستمر في حياته بقليل من العناء ، هو خُلق على هذا الطبع دون سواه من الكائنات الأخرى،

عقله ميزه عن غيره، ليس في السلم فقط، بل في الحرب كذلك. هو يستطيع أن يبدع في الخير كما في الشر.

عادت تتناول الفطور مع زوجها بعد أن كان آدم قد رتّب الطاولة والأشياء التي وجدها في الصندوق الكرتوني بشكل مقبول يستطيعان البدء بأول وجبة طعام يجمعهما في مركز اللجوء... في حين ظل كمال لا يلتفت ولا يتكلم، يأكل كالمسحور، وعندما شبع سطع وجهه بالفرح.

• • • •

لم يشعر قط كمال بالتضحية التي قدَّمتها له أخته بسكنه معها في غرفة واحدة، جاءت على حريتها مع زوجها من أجله، هو لم يقف مطلقًا في يوم من الأيام على هذه الجزئية المهمة خاصة بعد أن طالت بهم الإقامة في المركز... تحولت حياة آدم وأنهر إلى مزيج غريب من العلاقات المفروضة عليهما بحكم تصرفات كمال غير الناضجة المدروسة... هذا ما ستعاني منه أنهر في الأيام القادمة كثيرًا دون أن تنوه عنه لأحد.

أول شخص تعرف عليه كمال كان المغربي الأصفر الممصوص الذي يعاني من عُقد نفسية لا حصر لها؛ دائم السؤال عن المرأة والكيفية التي يتزوج بها بأقصى سرعة ممكنة بغية حصوله على الإقامة؛ ليس له من سيرة في حياته غير هذه... كمال أعُجب به ولا أحد يعرف لماذا، لم يعد يفارقه، يروح ويجيء معه دون

حساب، يُدخله الغرفة في أي وقت يشاء دون أن ينتبه لما تؤول عنه هكذا مواقف لأخته... حتى فاجأها المغربي يومًا بدخوله وجلوسه أمامها بحجة رؤية أخيها ووقتها لم يكن في الغرفة سواها دهشت من تصرفه غير اللائق، خجلت، لا تعرف كيف تطرده، فتح علبه سجائره وبدأ يدخن بانتظار صديقه كمال حسب قوله!... في هذه اللحظة دخل آدم الغرفة فتفاجأ بوجوده الغريب وهو يجلس بأريحية واضعًا رجلاً على رجل كما يجلس المرء في مقهى، نظر إلى زوجته دون أن ينبس علامة السؤال والاستفهام، كانت أنهر أكثر منه مرتبكة وحيرى حتى تقدَّم منه آدم مضطرًا وهو يلقنه درسًا رائعًا في الأخلاق:

- منْ أنت؟

مبتسمًا ببلاهة مستغربًا:

- أنا؟ ألا تعرفني؟

- هل أنت عربي؟

- طبعًا، ثم كركر برعونة... هه... هه... هه...

- لو كنت عربيًا أصيلاً كما تقول لما سمحت لنفسك بالدخول إلى بيت عرفت بأن صاحبه غير موجود، لقد رأيتَ زوجتي بمفردها ومع ذلك تعمدتَ الدخول والجلوس وبدأتَ التدخين كأنك في بيتك... خجل زوجتي وأخلاقها لم تسمح لها بطردك... العربي الشهم النظيف لا يفعل فعلتك... هيا... أرني ظهرك!

عرف كمال بالقصة فيما بعد، انهار لتصرف نسيبه، لامه وأنّبه على فعلته، ناح وقتها: ما كان عليك أن تكون معه قاسيًا إلى هذا الحد وأنت تعرف بأنه صديقي ولم يأتِ إلا من أجلي!.
ثم صداقته الغريبة مع المترجم يوسف اللبناني الحزين أبدًا المريض بالكآبة الذي حاول الانتحار مرة، وذلك برمي نفسه تحت قطار مترو الأنفاق ولم يُوفق في مسعاه... فلم يكن يحلو لكمال إلا الخروج معه في اصطياد لا أحد يستطيع التكهن ماذا، حتى جاء اليوم الذي أُلقي القبض عليه بتهمة المتاجرة في المخدرات، فأصاب هذا الخبر أنهر في الصميم لخوفها على أخيها من جرجرته في هذا الموضوع الشائك، ولم يحدث ما كانت تظنه سيقع فستره الرب بمعجزة.

هكذا كانت مغامرات كمال الطائشة طوال وجودهم داخل مركز اللجوء في الأسابيع والأشهر الأولى، ناهيك عن طلباته التي لا تنتهي من أخته لتوفير حاجاته وكأنها أمه التي أنجبته.

• • • •

بعد تناولهم فطورهم اضطروا لتسجيل إقامتهم وأخذ صور لهم بغية الحصول على هويات يستطيعون التنقل بها لمسافة لا تتعدى الثلاثين كيلو متر فقط حول مركز سكنهم، هذا ما كان يسمح به القانون وقتها. إدارة المركز كانت في ركن شبه مظلم في نهاية الممر الذي يتجاوز فيه بوابة المبنى. هناك تعرفوا على يوسف

المترجم الذي كان يلتحف بمعطف صيفي زيتوني طويل حد الأقدام رغم حرارة الجو ، رفيع وشعر رأسه قصير بدأ بالتساقط منذ فترة غير قصيرة على ما يبدو فبانت له صلعه مزروعة ببعض الشعيرات التي حافظت على نفسها من التهاوي بحكمة القادر ، صوته مميز فيه بحة جميلة وبين كلمة وأخرى كان يكفر ويلعن الآلهة وعلى طريقته اللبنانية المحلية... مضت ساعتان من العمل والانتظار حتى حصلوا على ما يريدون ؛ هويات خضراء بعرض الكف على شكل ورقة مطوية لا تتأثر بالماء كالأوراق النقدية.

قبل أن يغادروا المكان أشار لهم يوسف بأنه يوجد في المركز مؤسسة إنسانية تساعد اللاجئين في حل مشاكلهم وإيجاد فرص عمل لهم براتب رمزي جدًا لا يتجاوز حق الساعة مارك واحد فقط داخل المبنى ، وأن رئيس تلك المؤسسة رجل طيب وقور رقيق وفنان من السودان اسمه يعقوب، تعمل معه سكرتيرة ألمانية شابة تأسر القلب بجمالها وسماحة روحها تدعى كارين، يساعدهما رجل تركي ضخم ذو لحية كثة له ميول لص يحب استغلال منصبة في إتمام صفقات خاصة لا تتعلق بمجال عمله يسمى تيفود يكره رئيسه السوداني بشكل ملفت دون أن يصرح بهذا الكره لأحد يومًا ، تصرفاته كانت توحي بذلك وهي التي كانت تفضحه فطُرد من عمله بسبب حادثة سرقة شرع بها لحسابه الخاص بعد إقامة أصحابنا في المركز بنحو شهرين تقريبًا عندما اقتنى مواد

احتياطية لسيارة مركز اللجوء التي يستعملونها لنقل الأشخاص والأغراض، وبدلاً من تركيبها لها وضعها لسيارته المرسيدس بقلب جامد لا يخشى شرعًا ولا يهاب أمرًا أو عاقبة في الخلاء بمساعدة آدم الذي لم يكن يعرف ما يفعله بالتحديد رئيسه، عمل معه ليومين ثم هرب من تصرفات تيفود اللص التي لم يستطع صاحبنا مجاراته بصحبة آزار التركي زوج السمينة التي تشاجرت مع أبي شاربة في الطابور أثناء استلام رزقهم، وبعد أن فضح أمره طُرد... خلفه بالوظيفة رجل أسود البشرة ضخم كالفيل من غانا كثير الحركة يعمل بإخلاص متناه، أمين محبوب ودود يتحدث الإنجليزية كما الألمانية بطلاقة، مكشر عن أسنان بيضاء كالحليب كلما تلكم أو ضحك يدعى ألبرت، فانضما كل من آدم وآزار للعمل معه. بالإضافة إلى وجود إلى راهبة طويلة ذات هيبة خاشعة تجلجل بيضاء كالورقة وصفاء قلبها يُضرب به الأمثال في المركز تدعى الأخت مارتين، تساعدها فتاة سمينة ترعى شؤون اللاجئين الاجتماعية تسمى سلفيا والأخيرة كانت ضحوكة بشوشة ما أن تراها حتى تشاركها ضحكها دون أن تعرف لماذا، أصيلة كبنت من بنات أهل الجبل، عيبها الوحيد أن السيجارة لا تبارح من فمها، تزوجت عن كبر، حبلت وهي في نهاية الأربعين وكانت فرحتها لا تسعها كادت تقتلها، تعرفت عليها أنهر وباتت مع كاترين سكرتيرة مدير المركز من أفضل صويحباتها بعد أن عرفت طباعهما أحبتهما بإخلاص منقطع النظير كما أحباها... كانت تلك العلاقة الجميلة بداية حياة مشتركة فيها أمل خفف لحدٍ ما

من مأساة أنهر وزوجها الكثير في غربة بدأت بحرب غابت فيها أخبار أهلهما فزاد من عذابهما بالإضافة إلى ما عانى منه آدم بسبب صحته التي تردت بشكل مخيف نتيجة تغير الأجواء عليه وعدم تحملها ، ناهيك عما سيقابلهم من قهر وقسر في محل سكنهم... بالإضافة إلى كل هؤلاء الذين أشار لهم يوسف المترجم مؤكدًا لهم بصدق منقطع النظير بأنهم سيحتاجونهم في المستقبل القريب بشكل لا يمكن الاستغناء عنهم مازالوا في بداية مشوارهم في الغربة وماداموا يعيشون تحت سقف هذا المخروم الذي يدعى مركز اللجوء الرئيسي وعلى رأس هؤلاء رجل كندي حكيم طيب يسمى هنري وزوجته اللبقة الجميلة جون اللذان يعملان في الشؤون الإنسانية للاجئين محاولين جهد إمكانهما التقليل من قسوة حياة غربتهم بشتى الوسائل المتاحة ، وسيرد ذكرهما كثيرًا كلما تقدمنا في الرواية للعلاقة الوطيدة التي جمعتهما مع أنهر وأخيها وزوجها والتي استمرت حتى بعد ترحليهم إلى سكن آخر أحقر كثيرًا مما كانوا يتوقعونه... فقد كان سكنهم الجديد ببساطة جريمة إنسانية لم تعرف أسرارها ولم تكتب الصحافة عنها لشرها ولسوداوية صورها البشعة.

بعد الظهر اقترحت أنهر على زوجها وأخيها أن يخرجوا لشراء بعض الأشياء الضرورية من مركز المدينة... وافقاها الرأي ، نزلوا متخذين من المترو الذي لم يجربونه بعد وسيلة لتنقلهم بعد أن أخذوا من إدارة المركز خارطة المدينة بما فيها شبكة قطارات

المترو التسع التي كانت تشتغل في كل أنحاء المدينة الكبيرة المترامية الأطراف.

كان مركز مدينة ميونخ مهرجانًا من الضوضاء؛ شارع عريض يدعى "كاوفنكررنك" يبدأ بساحة "كارلس بلاتس "توجد في بطنها نافورة جميلة يلعب فيها الأطفال صيفًا ومكان للتزحلق على الجليد شتاءً بعد تسويرها، تسكن الشارع كبرى المحلات العالمية، الناس يستحلون كل شبر من أرضه، يتوسطه مبنى بلدية المدينة في ساحة تسمى "مارين بلاتس" ترقص فوقه على شكل دائرة تماثيل ترتدي لبسها المحلي تظهر في أوقات محددة من كل يوم لتدور لدقائق مع أنغام فلكلورية بافارية تصدح وتسمع عن بعد، تم إصلاح المبنى وترميمه بعدما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، ثم ينتهي الشارع المخصص للمشاة والتسوق بقوس قديم من الطرف الآخر.

قبل وصولهم ساحة "كارلس بلاتس" ضلوا طريقهم في محطات المترو التي كانت تعتبر بالنسبة لهم متشابهة في كل شيء، ظلوا ينزلون ويصعدون ويغيرون كيفما أتفق وعلى قدر فهمهم لقراءة خارطة شبكة قطارات المترو الموجودة في حوزة أنهر والتي تحاول بمساعدة زوجها تتبع أثرها... كان كمال دائم الصراخ لا يريد أن يهدأ، يشير لهما متدخلاً بين الحين والآخر مثبتًا لهما خطأهما دون أن يكون هو متأكدًا مما يقول... وبعد طلوع روحهم وصلوا مبتغاهم... انبهروا من ضخامة المحلات وكبرها والزبائن

الذين يرتادونها... اقترحت أنهر أن يقتنوا ما يحتاجونه من قدور وأكواب وملاعق وسكاكين، ثم طلبت من آدم شراء بعض الملابس التي تعوزها وتعوزه، حتى قاطعها كمال نابرًا مختلج الشفتين:

- أنا أيضًا أريد أن أشتري لنفسي بعض الملابس!

- طبعًا يا حبيبي، سنشتري لك كل ما تحتاجه.

ابتسم، أردف كناسك مرتاح الضمير:

- أنتِ يا أنهر قطعة ذهب خالص.

ضحكت أخته وهي تمسك يده بقوة؛ هامسة:

- عندما تسمع الكلام تكون رائعًا.

أضافت وهي تحث الخطى فرحة تعيش لحظاتها بكل أجزائها:

- لندخل هذا المحل الذي يبع المواد المنزلية.

دخلا وراءها ، كان الثلاثة كالمسحورين يترنمون ويتغنون بإنجازهم الأول، شعورهم بأنهم ومنذ عهد بعيد أحرار يفعلون ما يريدون حتى لو كانت أحلامهم بسيطة لا تتعدى شراء قدور يطبخون فيها وإناء يسخنون فيه الماء، وفي لحظة تغير وجه كمال وقطب مرتاعًا دون سابق إنذار نائحًا:

- أريد أن أدخل هذا المحل!

نظرت أخته له، وجدته يبيع الأجهزة الكهربائية. حزرت ما كان ينوي أخوها فعله، قالت:

- تريد أن تشتري مسجلة، أليس كذلك؟

كطفل يتيم، لم تلامس المشاعر الإنسانية من قبل قلبه، نبر:

- كيف عرفتِ؟

- لأنك حاولت في هانوفر فعل الشيء ذاته ونهيتك عنه... تابعت بحرارة صادقة: لا تفكر في اللحظة التي أنت فيها، انظر إلى الغد، لا نعرف ماذا ينتظرنا، ومن ثم أين ستضع المسجلة؟ هل محل سكننا أمين إلى درجة تتوقع فيها عدم سرقة جهازك لو اشتريته الآن؟، دعنا أولاً نُفرز إلى مكان أكثر استقرارًا ثم اشتري ما يحلو لك، ناهيك عن سؤالهم لو اشتريته، من أين لك المال، ونحن سنطلب منهم المساعدات؟ هل نسيت ذلك؟.

برطم كما في كل مرة يرتد أعقابه بعد محاولة طائشة. تقدمت منه وسط الطريق وهي تقبِّله من جبينه بعاطفة جياشة، هادلة:

- لا تزعل مني؟ هه...

- لن أزعل... أنتِ تقولين ذلك من أجلي...

- رائع، اتفقنا إذن، هيا... لندخل هذا المحل ونشتري لك الملابس التي تحتاجها.

ابتهج، شعر بسعادة تلتهمه، تذكر وقتها أمه بدرية، كادت تنهمر دموعه وسط فرحته، تبددت أحلامه التي كان لتوه يتلذذ بها بسرعة، غادرته كفقاعة صابون، طقطق كما يطقطق الخشب في بداية احتراقه:

- اشتقت لأمك يا أنهر، أين هي الآن، وماذا تعمل؟... تابع بغصة: الحرب اشتعلت نيرانها بسرعة، الكايزر لا يريد أن يتراجع عن غيه وترك الكويت. قوات التحالف عازمة هذه المرة على تحطيم العراق من خلاله، سمعت قبل أن نجيء إلى هنا هذا الكلام من

أحدهم، الإذاعات العالمية لا همَّ لها غير الأحداث الأخيرة التي عصفت ببلدنا...

قاطعه آدم وسط الزحمة بعد أن رأى نسيبه متأثرًا حد البكاء وهو ينظر له بتجلي كان الصدق فيها سيدًا:

- هوِّن عليك يا كمال، لا تقلبها غمًّا من أولها، أهلك وأهلي وأهلنا جميعًا هناك. العراق اليوم واقف على كف عفريت وسيكون مستباحًا بعد حين، أدعو الله أن ينقذهم وينجيهم... واصل بعد وقفة وهو يحاول أن يكون قريبًا منه بسبب المارة الذين حوله وبجانبه: حزنك لن يغير من الواقع مثقال ذرة، سنحاول مساءً الاتصال بهم لنتبع أخبارهم، لا تقلق... ثم حاول أن يغيِّر مسار الحديث مازحًا: يا رجل، ركز أنت في اختيارك للملابس واترك الباقي على الله، هو القدير الرحيم.

(٣)

من الحكمة في أحيانٍ كثيرة أن يصف الذكي الفهيم نفسه بالغباء ،
والعليم بالجهل ، والأديب بالسطحية ،
خاصة في أجمل وأعلى مراتب التجلي
وهم في قمة سطوع إلهامهم ، نبوغهم وإبداعهم.

أصعب شيء كان بداية مشوارهم في ميونخ هو اقتناؤهم لتذاكر المترو والكيفية التي يستعملونها، حيث لها قوانين صعبة وشروط لا يعرف بها حتى الذين يشتغلون كمراقبين لمعاقبة المخالفين الذين يصعدون القطارات دون تذاكر تجدهم أحيانًا يتصلون بزملائهم لمعرفة إن كانت هذه البطاقات تصلح أم لا، فكيف والحال بالقادم الجديد الذي لا يعرف اللغة ولا قانون المدينة ؟ المسألة كانت محيرة ، حتى روى لأصدقائنا أحد اللاجئين الجدد من العرب موقف يقصم الوسط من الضحك لأنه كان يعتقد بأن تذاكر المسبح التي حصل عليها هدية من مؤسسة إنسانية كي يستحم هناك لعدم توفر حمامات صحية في سكنه بأنها تذاكر للمترو للشبه الرهيب بينهما... وعندما حضر بالصدفة المراقبون لسوء حظه كان يترنم بالشجاعة يكركر قبل أن يصلوه ومن ثم يسألوه عن رغبتهم برؤية بطاقته أظهر لهم ولأول مرة في حياته يقل المترو حسب اعتقاده بتذاكر سليمة وعندما رأوا بطاقته انطلقوا يقهقهون بصوت عالٍ

دون أن يعرف صاحبنا المسكين على ماذا يضحكون، لم يكن يفهم لغتهم، يسألهم بالعربية بغباء ساحق وهم يجيبونه بإشارة بأيديهم تشير بأن التذاكر هذه تصلح للدخول إلى المسابح وليس لصعود المترو... وبعد أن فهم بكى حظه العاثر خاصة بعد أن غُرّم أربعين ماركًا لم يدفع منها غير عشرة ماركات لأنه يعيش على الإعانة التي تقدمها له بلدية المدينة... هذا ما كان معمولاً به وقتذاك...

بعد أن رجعوا من مركز المدينة بطلوع الروح لضعف بصيرتهم في استعمال القطارات التي تسير تحت الأرض بعمق لا يعلم به الشيطان، ولتشابه المحطات وكثرة فروعها وأنفاقها كان الوقت قد تجاوز التاسعة مساءً بقليل... كانت الريح تهب بلطف فاتر، الأجواء في الشوارع البعيدة عن مركز اللجوء لها سمة الرومانسية، كنيسة قديمة تستحل أحد الأركان التي من أمامها تبدأ الحديقة الغناء، على يسارها ساحة مخصصة للألعاب وبعض المحال التجارية التي كانت مغلقة عندما رجعوا مساءً وأغلب سكانها من الألمان... لو اقتربنا من الدائرة الأقرب للمبنى نجد الفروع والدكاكين والشقق وساكنيها على شاكلة أخرى تمامًا لا يقطنها تقريبًا غير الأتراك تدعى المنطقة "كَيزنَك" بينما المنطقة التي يقبع فيها مركز اللجوء فيمكننا أن نتحدث عن رذائلها وفقرها وقذارتها دون تحرج ترعب المجانين أنفسهم... وما يهمنا من كل ذلك هو أن أنهر لا يعجبها التنزه مساءً إلا في الحلقة الأبعد عن محل إقامتهم الجبرية مع زوجها وأخيها كلما شعرت بأنها بحاجة إلى الهدوء والنظافة والتأمل، فيسرحون ويمرحون بعيدًا عن

أنظار اللاجئين الفضوليين الذين لا همَّ لأغلبهم غير الفراغ الضاري والتصنت الهمجي والعراك البربري، ودندنات موسيقية تصدح حتى ساعة متأخرة من الليل من الغرف التي يقطنها الأتراك وأحد ساكنيها يضرب أوتار جوزته متوهمًا مقلدًا بغنائه إبراهيم طاطليس، عراقي يبكي خيبته وهو يحرك خيوط آلة عوده الموسيقية للحن للمرحوم "رياض أحمد" محترق السريرة بعذاب خرافي كعذاب الشك، وغجري لا يكف عن ضغط وسحب الأركديون المحمول على صدره كما تحمل الأفريقية طفلها ملفوفًا بقطعة قماش وآلته تطلق تنهدات مشروخة تجعل الابتسامات تتجمد برهبة على الشفاه مصلوبة...

وبعد أن أصعدوا أغراضهم نزلوا للاتصال بأهلهم...

في الطريق تعرض لهم رجل إيراني وسيم بهي الطلعة بعينين خضراوين صغيرتين كأنهما لطفل يدعى مسعود يعمل مسئولا عن صيانة مبنى اللجوء يسكن في إحدى غرفه في الطابق الخامس تجنبًا التكاليف التي يمكن دفعها لحق الإيجار لو سكن في مكان آخر، فرضى بالإقامة الاختيارية مع اللاجئين طمعًا بتوفير بالمال، كان - والحقيقة تقال - رجلاً طيبًا ودودًا، يحب أن يساعد ولا يقصِّر في أي شيء تطلبه منه إلا أن تعبِّر عن رغبتك في الاستلاف منه، وقتها يضحك كأنه يبكي مبربرًا: لو كان عندي نقود لسكنت خارج هذا السجن الجهنمي، ويقصد به طبعًا مبنى اللجوء الرئيسي في المدينة... ناداهم بصوت رفيع محبب للقلب:

- انتظروا لحظة...

توقفوا ، سأله برنة ودودة آدم بحرص باللغة الإنجليزية بعد أن أصبح قبالته بالضبط:

- نعم، هل من خدمة؟

بابتسامة عذبة ساحرة:

- أنا مسعود ، أعمل في مركز اللجوء الذي تقيمون فيه مسؤولاً عن صيانته، عرفت بأنكم من العراق، يعمل معي مترجم عراقي كوردي يدعى فرياد ، حدثته عنكم، يود التعرف عليكم... توقف للحظة ثم تابع : على الرغم من الأزمة التي تمرون بها فعدد العراقيين القادمين قليل جدًا مقارنةً بالدول الأخرى التي لا تمر أصلاً بأزمة كرومانيا وبلغاريا وتركيا ومصر ودول شمال أفريقيا.

شعر آدم بارتياح حقيقي من لهجة وأسلوب مسعود وكلماته الرقيقة المختصرة البليغة ، نظر إلى زوجته يسألها النصيحة دون أن يكلمها، ردَّت عليه أنهر متدخلة بعد أن فهمت ما كان زوجها ينويه من نظرته الناطقة:

- على الرحب والسعة، نرحب بك ويسعدنا أن نتعرف على فرياد، سيكون بالتأكيد من الأصدقاء المقربين.

ثم تركوه بعد أن وعدهم بأن يلبي طلبهم بإيجاد فرصة عمل لهم داخل مركز اللجوء على أمل لقائهم في العاشرة من صباح الغد عند مكتب السيد يعقوب رئيس المنظمة الإنسانية.

أكملوا سيرهم بعد أن تبادلوا مع مسعود أرقام غرفهم يدعون في سرهم أن تكون عواقب الحرب على العراق وأهلهم غير كارثية.

• • • •

فضَّلت أنهر أن تبتعد عن دائرة مركز اللجوء وتمضي قدمًا نحو الأحياء الهادئة الوادعة التي تتصف بالرومانسية الغارقة في بحيرة من الصمت اللذيذ التي تحتاجه في سويعاتها التي تحياها وسط ضجيج لا يريد أن ينقطع، وافقاها الرأي كل من آدم وأخيها كمال، تابعوا سيرهم وأياديهم على قلوبهم رهبة من نتائج ما سيؤول عنه اتصالهم بالأهل...

بعد أن خرج رجل ألماني عجوز من كابينة الهاتف بصحبة كلب كان ينتظره خارجها كأنه يحرس صاحبه؛ دخل كمال الكابينة مهتاجًا وهو يردد على مسامعهم:

- أنا من يتصل الأول.

- لك ما تريد يا حبيبي... أجابته أنهر بوقفتها تنتظر مع زوجها بجانب الكابينة التي أمسكت بابها بيدها كيلا تقفل.

لحظات مريرة، صعبة، قاسية كألم الجروح الملتهبة، كالحرقة التي تولدها ضربات السياط على الظهر تحوم فوقهم يعيد كمال الاتصال دون أن يفلح... انهار سريعًا، لعن، سبَّ، شتم، وقبل أن يتحطم تدخلت أخته متوسلة:

- ما هكذا تسير الأمور... تابعت برقة: أعط لنفسك فرصة، ابتعد، سأحاول بنفسي وإن لم أنجح ندع آدم يجرب علّه يستطيع أن يتحدث مع والدته...
حاولت، أعادت الأرقام أكثر مرة، الخطوط مشغولة، لا أثر لحياة فيها...

- هذا هو عراق اليوم... صاح كمال نابرًا بعد أن اعترته رعشة كرعشة الموت.

التقط آدم منها سماعة الهاتف، أدار أرقام هاتف أهله، لم يستطع الحصول على نتائج سارة كما توقعوها من المرة الأولى، أعاد الكرَّة، وقبل أن ينفد صبره رنَّ الهاتف في بيتهم، تشجع، تدفقت الدماء في جسده بحرارة شعر بقوتها، سأل:
- منْ معي؟ أنا آدم...
الصوت ضعيف والريح تعصف في الأسلاك كأنها تنوي تحطيمها عواء في داخل آدم يصدح في بدنه، هواجسه مجروحة، وألمه يعتصر قلبه، هو لا يريد غير أن يسمع صوت أهله، هل كُتب على العراقي الحرمان في كل زمان ومكان؟ أي قدر هذا الذي كتب عليهم؟ جاءه صوت واهن بالكاد كان يسمع:
- أنا أمك يا حبيب قلبي، كيف صحتك؟ ماذا عن مرضك، الربو لعين؟ خذ حذرك، سمعت بأن أجواءكم في الصيف كأجواء شتاءنا ما أخبار زوجتك؟ متى ترجع؟! اشتقت إليك كثيرًا...
انتبهت على نفسها، صحَّحت ما قالته:

- لا يا ولدي لا تفكر بالرجوع ، كان قلبي هو الذي يتحدث ، الوضع هنا سيء جدًا لا أستطيع وصفه ، الخوف يطاردنا مثل الموت حتى ونحن في دارنا، أخوتك في الجبهة، لا أحد هنا بقربي غير زوجة أخيك مروان وأختك سلوى وابنها الصغير ، نفكر بالرحيل إلى مدينة أخرى سعيًا للأمان ، بغداد لم تعد آمنة كما تركتها، سنجتمع مع عائلة أختك قمر في بيتهم في مدينة بعقوبة، ربما نكون هناك على حال أفضل، حدثني أنت عن...

لم تكمل جُملتها، انقطع الخط، حاول مجددًا... أعاد اتصاله، يأس، تكدر ، شعر بمرارة قاتلة توخز قلبه... سحبته أنهر إلى خارج الكابينة، طبطبت على كتفه، قبلته من جبينه، حضنته دون خجل، المشاعر لا تندثر ، لماذا لا يكون الشرقي صادقًا في ترجمة مشاعره عندما يتطلب الموقف منه ذلك؟ أنهر لم تعر لما حولها شأنًا ، حضنت زوجها في الشارع بصدق مواسيه إياه وقلبها ينصهر ، يتحطم كآنية فخار بالإضافة لحزن زوجها لم تستطع أن تتحدث مع أهلها حتى بعد أن حاول كمال مرارًا دون فائدة...

رجعوا قافلين والهمُّ يزفهم كالعادة لأنهم من الشرق ، من بلد الطاعون، ومن العراق بالتحديد.

(٤)

عقل المرء قلبه إذا أراد أن يفهم

مهلاً... لم نبدأ بعد بتدوين المأساة !. عنوان الرواية يحدث في النفس أثرًا طيبًا ، العودة ، هناك من سيظن بأن العودة ستكون للوطن مثلاً ، أو للحياة ، وأن أبطال روايتنا سيكونون سعداء بعودتهم !. المسألة هنا تختلف تمامًا عكس ما تظنون ، معذرةً ، عودتهم كانت ليست للوطن بل للوهم، الأخير أول حروف أبجدية الغربة لمن يحسن قراءتها !. وقبل معالجة الرواية تكنيكيًا علينا التوقف هنا قليلاً لسرد بعض الأحداث المهمة التي حصلت في حياة أصدقائنا الغُرباء الجُدد:

انتظرهم مسعود الإيراني رجل الصيانة عند مكتب رئيس المنظمة الإنسانية السيد يعقوب السوداني الأصل ربع ساعة كما اتفقوا عليه ليلة أمس ولم يحضر أحدٌ منهم، غادر المكان بعد أن شعر باليأس ملبيًا نداء أعماله التي تنتظره...

الحقيقة المُرَّة هي أنهم كانوا حريصين على الحضور لكن الأزمة الصحية الفجائية التي تعرض لها آدم غيرَّت مسار حياتهم للأيام المقبلة على غفلة لم يتوقع أحد حدوثها ، ففي ساعات الصباح الباكر وقبل أن يستحل ضياء الشمس أرض الغرفة العارية شعر

آدم بألم يلسع فخذه الأيمن في نقطة مركزة طافحة بالجراحة كعين كبريتية صغيرة ملتهبة تفور وتغلي تود الانفجار ، فلم يطق تحمل ألمها فأشار لزوجته بأن يذهب من فوره إلى المستشفى أو استدعاء الطبيب ، وهذا ما حصل وهو يطلق صيحاته المتحشرجة التي كانت تثقب صمت الغرفة كصيحات المرأة الطالق في ولادتها الأولى الواحدة تلو الأخرى دون هوادة...

ركضت أنهر إلى استعلامات المركز لإبلاغهم بضرورة استدعاء طبيب ينظر في حالة زوجها الذي كان لحظتها يصرخ ويتلوى نتيجة الآلام المبرحة التي كانت تغزوه وتشل حركته بالإضافة إلى شعوره بضيق تنفسه التي تزامنت مع ما كان يمر به من تشنج... كمال لحظتها لم يفزّ من نومه إلا بصعوبة متذمرًا لما كان يسمعه من تأوهات يطلقها نسيبه الذي يتمرغ على الأرض العارية دون هوادة حتى قرَّر في ساعة رعناء من تغير ملابسه بغية ذهابه للقاء مسعود بمفرده كيلا تضيع عليه فرصة العمل الموعودة!. وعندما رجعت أخته وشاهدته يرتدي ثيابه فهمت بأنه ينوي مشاركتها محنتها وربما يذهب معها إلى المستشفى إن تطلب الأمر لنقل آدم إليها، لكنها تفاجأت بقوله وهو يردد على مسامعها بمكر لا يخفى على حليم:

- سأذهب لمقابلة رئيس المنظمة الإنسانية بمفردي وأحدِّثه عن حالة آدم وما آل إليه وبذلك لا تضيع علينا جميعًا فرصة العمل!.

لم ترد عليه أخته، كان همها زوجها، حبيبها آدم الذي يتلوى لا تعرف سبب علته... حضرت فرقة الإسعاف، طبيب ومساعدون يدبون على الأرض بنشاط غير معهود لأصدقائنا، أنها المرة الأولى في حياتهم التي يواجهون موقفًا كهذا في غربتهم... وما أن فحصه الطيب حتى شك بأنه يعاني من أزمة سكرية حادة !... سألهم أن كانوا يتحدثون الإنجليزية. أجابته أنهر، بنعم، قال:

- أنصحكم بنقل المريض من فوره إلى المستشفى العام الموجودة في منطقة "السنكلرتور" المحاذية لمركز المدينة، هناك سنجري له بعض الفحوصات اللازمة للتأكد من التشخيص الأولي...

ولم ينته من جملته حتى أدركته أنهر باكية بلوعة تحرق القلب، نشجت ولم تستطع السيطرة على مشاعرها، آدم لا يعني لها الزوج فقط، بل الحياة بأسرها... وما أن رأى كمال الموقف المتأزم حتى غيَّر رأيه، وفضَّل الانتظار مستعيدًا بالرب.

تم نقل آدم بسيارة الإسعاف على نقالة، اجتهد المساعدون لإنزاله على كرسي متحرك عبر السلم لعدم توفر مصعد كهربائي بعد أن استماتت أنهر بأن لا تدع زوجها لوحده وصعدت معه في السيارة وهي لا تنقطع عن الرجاء والدعاء والتوسل، في حين أخذ كمال العنوان وذهب وراءهم عن طريق مترو الأنفاق، وهناك التقوا مجددًا وآدم بين أيدي الأطباء يجري الفحوصات ولم ينقطع صراخه طالبًا الرحمة.

• • • •

تفاجأت أنهر بوجود شخص غريب مع أخيها كمال عندما حضر. كان شابًا في شرخ الشباب قصير القامة ، رفيع ويقال عنه بالعراقي: مسلوع (*) ، على وجهه آثار حروق واضحة مازالت راسخة كأنها تأبى النسيان ، حليق الوجه بشفتين ناعمتين مثل خطين أو جرحين بحنك مدبب كأنه مصقول عن عمد مثل كعب جزمته ، شعر رأسه طويل مضفور إلى الوراء ومربوط بحلقة مطاطية زاهية الألوان كتلك التي تستعملها البنات، ينتعل في ذلك الصيف حذاءً طويل العنق كرجال الكابوي الأمريكي في مؤخرته عتلة معدنية مثبتة في حافتها قريبة من الكعب الذي يشبه بوزه، وعندما كان يتحرك يهتز بدنه كله خاصة لو تحدث باللغة الإنجليزية، وقتها نراه يرتجف وهو يطلق الكلمات دون أن يُعرف سببٌ لذلك !... قدَّمه كمال لأخته بفتنة كشخص زاخر بروح الغرور والانتصار:

- هذا فرياد المترجم الكردي الذي حدثنا عنه ليلة الأمس مسعود رجل الصيانة.

بنظرات شاردة كشخص مغلوب على أمره رحبت به:

- أهلاً وسهلاً بك، تشرفنا بمعرفتك... قالت ذلك وهي تمد له يدها مصافحة...

---

* **مسلوع : ضعيف البنية يتهاوى مع الريح لخفته.**

صافحها بنشاط وهيبة غير متوقعة، ثم نبر أخيرًا بعد شوط من الصمت دام طويلاً بلهجة مرتبكة ما بين العربي والكردي:
- أهلاً. دخل في الموضوع مباشرةً فاهتز بدنه قبل أن يلعلع لسانه: أين زوجك الآن؟
- في غرفة الفحص هذه.
- حسنًا، سأذهب وأتحدث مع الممرضة وأسأل عن الدكتور المختص.

طاردته بنظراتها متأهبة لتعرف شيئًا عن حالة زوجها، قلقها أعماها، هي لم تعد ترى الأشياء كما تعودت أن تراها، نور حياتها آدم، وهو راقد يتألم، يصرخ، يستغيث داخل غرفة الفحص لا تعرف ما استجد عنه. المصيبة لو وقعت أهون من انتظار وقوعها الصبر أحيانًا رحمة، فضيلة، وقد يكون صلاة للرب... اتكأت على الجدار منهكة، اقترب أخوها منها، أخذ يدها، فركها، همس:
- قلبي معكما، لا تقلقي، سيكون بخير، أنا متأكد من ذلك.

عاد فرياد محملاً بالأخبار غير السارة، مندفعًا، ناح وهو يرتعش كلهب المشعل:
- ستُجرى له عملية استئصال سريعة للمنطقة الملتهبة ويتم تنظيفها وتضميدها وسيخرج معنا إذا تأكدوا من عدم انتشارها في مناطق أخرى!.

وما أن سمعت أنهر الكلمة الأخيرة حتى شهقت باكية دون شعور وهي تردد:

- ماذا تقول؟ تنتشر في مناطق أخرى من جسمه؟.. تابعت منهارة: آدم وأعرفه ، سوف لن يتحمل الألم ، بالإضافة إلى أنه إشارة بالفعل لمرض سكري أصابه.

انحنت ، تقوست على نفسها ، غطت وجهها بيدها ، ركعت على الأرض وهي تنتحب متشنجة... اقترب منها كمال، رفعها من على الأرض ، حضنها ، مسد لها شعرها ، همس في أذنها ودموعه سبقت كلماته:

- لا تفعلي بنفسك هكذا ، آدم سيكون بخير ، بل هو بخير ، مجرد ظرف عرض طارئ سيزول، أؤكد لك ذلك...

قاطعته وهي تدفن رأسها في صدره:

- أنت لا تعرف آدم مثلي ، أضافت بعد شهقة خرجت من بين ضلوعها وبصوت حنين ملائكي عذبه الشقاء الأرضي: هو أرق بكثير مما سيفعلونه به ، لا يتحمل الألم ، هل تفهم ما أعني ، لا يتحمل.

- نعم ، أفهم هذا جيدًا ، لكنه رجل ، والرجل منا لابد وأن يتحمل الألم ويصبر عليه إن أراد أن ينهي عذابه.

اقترب منهما المترجم فرياد، ناح برنة رفيعة لها رنة النحاس:

- لا تقلقي بابا ، المسألة كما أكّد لي الطبيب سهلة والدليل أنه سيخرج معنا بعد ساعات قلائل معافى ، ماذا تريدين أكثر ؟ ، ثم

أنهى خطبته المقتضبة بكلمة دارجة عراقية بحتة لكنه حرَّفها بالكردية بعد أن استبدل حرف الطاء بالتاء: تولي بالك (•).

خرج آدم من الغرفة المزدوجة الغرض للفحص ولإجراء العمليات الصغرى في هذه اللحظات وهو تحت تأثير المخدر نائمًا لا يدري في أي كوكب، شاحب اللون مطبق الشفتين، وملابسه التي كان يتقلدها ساعة حضوره بسيارة الإسعاف ملقاة بجانب قدمه اليسرى على شكل صرَّة بعد أن ألبسوه بدلاً عنها صدرية بيضاء مفتوحة الظهر لا يسترها غير رباط رفيع عند الكتف شُدَّ بحزم ولباس داخلي شفاف مثقب ذا فتحات دقيقة للوقاية من التلوث وتحته كانت الضمادات الطبية، وما أن رأته أنهر حتى ركضت نحوه ودموعها كانت قد غزتها فجأة من جديد وهي تمسك بكتفه من ناحية اليمين والممرض يدفع سريره بسرعة متمرس عليها لإدخاله غرفة أخرى للراحة حتى يستعيد وعيه... تبعها كمال، في حين استغل فرياد الموقف وذهب من فوره للقاء الطبيب وسؤاله، وبعد أن كان له ما أراد رجع إلى الغرفة التي يرقد فيها آدم، وجد أنهر تحيطه برعاية تفوق التصور، كانت لا تعرف بالضبط ما تفعله، تمسح العرق من على جبينه، تسرح شعر رأسه بيدها الصغيرة وتمرر أصابعها الناعمة المصقولة التي يضرب المثل بجمالها وروعتها وحسن رسمها وتصويرها حتى قالوا عنها بأن أصابع تشبه أصابع

• **تولي بالك : الصحيح باللهجة العراقية الدارجة: طولي بالك ، وتعني: ليكن صبرك طويل.**

البيانو ، وكمال مشغول في أمر ما يتأمل ناظرًا عبر زجاج النافذة المطلة على الشارع الرئيسي العريض الذي يدعى "الندفورم ستراسة" المكتظ بالمحال التجارية القريب من مركز دائرة العمل الرئيسية لمدينة ميونخ... صاحت به أنهر ما أن شعرت بدخول المترجم:

- بشّر أخي فرياد ؟ ماذا قال لك الطبيب ؟.. لقد لاحظتك عندما تركتنا وذهبت للسؤال عن حالة زوجي!... هيا... قل، ماذا تنتظر ؟ أرجوك...

هكذا كانت تطلق أسئلتها بعفوية غير منضبطة والمترجم مازال لم يخطو داخل الغرفة غير خطوة واحدة وأنفاسه المقطوعة أصلاً بالكاد يلتقطها وبدنه يرتعش كأنه مصاب بالحمى.

• • • •

بعد ساعة ونصف أفاق آدم على نفسه بسعال شديد متواصل لا ينقطع وتكاد روحه تخرج من فمه. ارتعبت زوجته ، هرعت لاستدعاء الطبيب من غرفته ، وجدت في الممر الذي يفضي لغرفة الطبيب ممرضة تدفع عربة بيضاء عليها ملفات مكدسة وبعض الأدوية ومواد للتضميد والتعقيم سألتها باندفاع محموم بالإنجليزية:

- أين أجد الطبيب ؟ وتابعت متلهفة : لقد أفاق زوجي من تأثير المخدر وهو في حالة مضطربة يسعل.

قاطعتها الممرضة بقولها:
- سنحضر حالاً لرؤيته... لا تقلقي، هذه نوبة طبيعية يتعرض لها المريض بسبب فعالية المخدر وقوته، فيسبب جفاف في الحلق والبلعوم وصعوبة في التنفس...

ذهلت أنهر من جوابها التي اعتبرته باردًا مقتضبًا رغم التوضيح، تجمدت حواسها، الممرضة لا تعرف ماذا يعني آدم بالنسبة لها؛ حبيبها يسعل، يتألم، يلوب وهي بحرقة تذوب، أعصابها متوترة، تنظر برعب نحو اللاشيء، لا تفسير لتصرفات أنهر غير الحب الجارف الذي ألمَّ بقلبها فسلبها لُبَّ تفكيرها في لحظات كانت لها ثقيلة أثقل من الحجر على صدرها... رجعت بسرعة إلى الغرفة التي كان آدم يقطنها مع مريض آخر سريره قريب من الشباك... وجدته مستندًا على أخيها وهو جالس بجانبه هادئًا، تغيرت ملامحها فجأة، ضحكت، تقدمت من زوجها دون أن تنظر لأحد، قبَّلته من جبينه، قالت ببحة عذبة:
- هكذا إذن، تشغلنا عليك بهذه الطريقة اللذيذة؟.
ابتسم بصعوبة وهو يحاول أن يحضن زوجته ولم يقدر، كانت قواه منهارة، أراد التحدث فخرجت الكلمات خفيضة هامسة كأنها قادمة من تل بعيد:
- لا تقلقي عليَّ، سأكون بخير...

ثم طلب ماءً ليشربه... تدخل المترجم رافضًا طلبه:

- لابد من الانتظار قليلاً حتى يذهب تأثير المخدر تمامًا من جسمك وإلا سيتقيأ فورًا...

أثنت على قوله أنهر:

- هذا صحيح.

دخلت الممرضة في هذه اللحظة فتوقفت أنهر عن الكلام ، الممرضة رأت آدم جالسًا على سريره بجانب زوجته وكمال كان قد ترك مكانه لأخته ففضل الوقوف بجانب المترجم... فحصت نبضه، نوهت:

- كما توقعت، أمر طبيعي جدًا... سيخرج معكم في غضون ساعة بشرط أن لا يتحرك في اليومين القادمين إلا للضرورة القصوى، ثم يأتي بعدها لتغيير الضمادات والتأكد من سلامة العملية ونجاحها مع الرعاية في النظافة... كرَّرت كلمتها الأخيرة بحزم، النظافة أفضل علاج في حالته!.

امتعضت أنهر لدى سماعها ذلك ، سرحت في فكرها ، تذكرت مكان سكنهم، قالت تحدث نفسها بمرارة:

- عن أي نظافة تتحدث؟ هي لا تعرف في أي وكر نقيم؟ بل أن لا شعار لمركز اللجوء غير الوساخة، الوساخة المطلقة في كل شيء وأولها الحمامات غير الصحية التي يصعب على الحيوانات دخولها واستعمالها فكيف وهذا الحال تطلب منا النظافة؟

استقلوا سيارة أجرة بمساعدة المترجم فرياد بعد أن استلمت أنهر من الممرضة المختصة بعض الضمادات الطبية التي يمكن

استخدامها لتنظيف مكان العملية حتى رجوعهم بعد ثلاثة أيام إلى المستشفى كما تم الاتفاق عليه... وما أن وصلوا مركز اللجوء حتى واجهتم مشكلة لم يعرفوا كيف يتصرفون بحلها، إلا وهي نقل آدم إلى غرفتهم الكائنة في الطابق الثالث دون مصعد كهربائي؟ فاضطر كمال لحمله على ظهره بطريقة مضحكة كما يشيل الشيال كيس الدقيق على ظهره وصعد به مفتخرًا بانجازه وأخته ترفض خوفًا عليه وهو يضحك كالجني المنطلق في عالمه لا يلوي على شيء حتى وضعه على سريره، وآدم خجلاً ممتنًا من تصرف نسيبه، لم يتوقع منه أن يفعل ذلك، وظل هذا الموقف يتذكره دائمًا بالطيبة... فرياد يقهقهه مرتعشًا كعادته على طريقته الخاصة الفريدة منتشيًا كأنه في ليلة زفافه وهو الذي فتح باب الغرفة بيده بعد أن أخذ المفتاح من أنهر استلطافًا بجرأة غير متوقعة لإثبات شيء ما في نفسه!...

صاح كمال راطنًا بعد أن أنجز عمله:

- سأموت من الجوع يا أنهر.

اقتربت منه، قبَّلته من وجنته، قالت:

- حاضر يا حبيبي، سأذهب لاستلام حصتنا ثم أعمل لكم - وكانت هنا تقصد فرياد معهم - وجبةً لا تنسى.

قاطعها المترجم حاسمًا:

- الوقت قد تأخر، لن تجدي من يفتح لك أبواب المخزن ويسلمك حصتكم، انتظري وأنا سأحضر لكم ما أجده على معرفتي.

غادرهم قبل أن تعترض، بعد أن سلمها مفتاح الغرفة وابتسامة ماكرة رأتها أنهر واضحة يحاول رسمها على وجهه المحروق ولم يقدر على إخفائها لم تهتم بشأنها، انشغلت بزوجها وهي تحاول أن تهيئ له ما يريحه في نومته الجانبية على سريره، وكمال يدندن بكلمات أغنية ما فتئ يعيدها مغرم بها حد العشق لكاظم الساهر "عبرت الشط على مودك" وأنهر فرحة لعدم حاجة آدم لمسكنات تهدئ ألمه... حتى طل عليهم فرياد حاملاً كيسًا بلاستيكيًا فيه علب لسمك "السردين" بالطماطم وقطع صغيرة من الخبز البارد ممطوط يؤذي اللثة عند المضغ.

(٥)

يغفر الله خطيئة المرء
بعد أن يستقر ندمه صادقًا في أعماق قلبه

في صباح اليوم التالي التقى كمال برجل الصيانة مسعود الإيراني بعد أن اجتمع به عصر أمسه شارحًا له الأسباب التي جعلتهم لا يحضرون للقاء رئيس المنظمة الإنسانية طلبًا للعمل ، واتفقا أن يجتمعا عند الصباح، وها هو ينتظر جالسًا في الممر الضيق الذي يفصل غرفة السيد يعقوب السوداني عن الكراسي الثلاثة الخشبية البُنية اللون المتراصة بعضها ببعض متحمس يفرك شاربيه الذهبيين الرفيعين كفنان في حالة إلهام وعيناه الزرقاوان تتلصصان تبحثان عن مسعود حتى رآه بصحبة أبو شاربة، ذلك الرجل السوري القروي الذي تشاجرت معه السمينة التركية زوجة آزار داخل طابور الانتظار أثناء توزيع حصصهم من المواد الغذائية ، ظهر مسعود منشرحًا ، مبتسمًا بسنٍّ ضاحك كعادته وظهره متقوس بمشيته، رحب بكمال على طريقته الشرقية، قال:
ـ انتظر لحظة حتى أستدعيك.

دخل مع صديقه القروي على مدير المنظمة وصفقا الباب وراءهما... ما هي إلا ثوانٍ حتى طلَّ عليه مناديًا:
ـ تعال...

نهض كمال مرتبكًا، متعثرًا بخطاه، وقف أمام المدير ساكنًا كأنه يمثل دور الصنم... شعر السيد يعقوب بخجله وارتباكه، سأله ضاحكًا:

- عرفت بأنك من العراق؟ ومعك أختك وزوجها تطلبون العمل عندنا في المركز، أليس كذلك؟

- نعم، هذا صحيح... قال ذلك وهو يرنو ببصره لمسعود وأبي شاربة الواقفين بجانب الشباك المطل على الفناء الخلفي للمبنى يتمتعان بالصمت والتأمل...

- كيف العراق؟

- لا يبشر بالخير.

- الكايزر سيضيعكم.

- نعرف هذا.

- حسنًا، ماذا تستطيع أن تعمل؟

- أي شيء.

كالسهم المنطلق:

- تكون مسؤولاً عن غرفة الألعاب والتسلية... عمل لا يتطلب جهد ولا لغة، سهل جدًا، تفتح الغرفة صباحًا عند التاسعة، تأخذ بالك من عيناتها، تهتم بنظافتها، ثم تسلّم مفاتيحها للشخص الذي يأخذ دورك عند الثانية عشر ظهرًا...

وبعد وقفة قصيرة وهو يتأمله جيدًا:

راتبك سيكون في الشهر أربعون ماركًا لا غير... موافق أم لا؟

دون لحظة تفكير، أو تردد:

- موافق.

ثم تجرَّأ:

- وماذا عن أختي أنهر وزوجها آدم؟ الأخير مريض، لكن أختي باستطاعتها المباشرة بالعمل...

قاطعه:

- أبعثها لي وأنا سأتحدث معها...

وبذلك كانت كلماته إيحاءً بنهاية اللقاء بعد أن سلّمه مفاتيح الغرفة ودلَّه على مكانها ومسعود وأبو شاربة ينظران لهما مرتاحين للنتائج، سعيدين بإنجازهما.

• • • •

بعد أن استلم كمال حصة الأكل مع أخته حدَّثها وهم يتناولون غداءهم عما حصل معه بخصوص العمل، وطلب منها الذهاب لمقابلة مدير الهيئة الإنسانية لاستلام عمل ربما ينتظرها، مُثنيًا على جهود رجل الصيانة والقروي السوري.

اعترضت في البداية على ترك زوجها لوحده، لكنه طمأنها بقول:

- لا تقلقي... أنا بخير، اذهبي وهيئي لنا أي عمل يناسبنا.

وافقته الرأي بفرحة، أنهر تحب أن تحيا، حياتها عطاء متواصل، لا تستطيع أن تستوعب أنه يمكن أن يأتي عليها اليوم وتكون

عاطلة، سعادتها بتشجيع آدم لها لم يسعها قلبها الصغير، أجابته بحنية صافية:

- حسنًا، سأذهب إليه بعد استراحة الغداء وسأحاول جاهدة أن أجد عملاً لنا وفق إمكانياتنا ولغتنا على قدر ما أقدر.

نبر كمال كاسرًا صمته الذي اعتصم به:

- يجب أن لا ننسى موعدنا لإعطاء أقوالنا غدًا صباحًا.

همس آدم بصوت واهن خفيض بالكاد يسمع:

- كيف ننسى موعدًا كهذا ؟... تابع: يقولون بأنهم بعد أن يأخذوا أقوالنا يفرزوننا إلى محل إقامة جديد لا يعلم من أمره إلا الله، في مدن نائية أو قرى غير موجودة على الخرائط لصغرها، لكنهم نصحوني بأن نرفض لأسباب قوية تجعلهم يبقوننا في ميونخ، أو محاذاتها لتوفر فرص العمل فيها... ما رأيكما؟

- أنا لن أذهب إلى أي مكان آخر غير ميونخ، وإذا أجبروني سأرجع إلى كريم في هانوفر !... قال كمال ذلك مزقزقًا بصوت ترتعش فيه البلاهة وشفتاه بانتا ضخمتين توضحان انزعاجه.

في حين جابهت أنهر قول زوجها برقة ممزوجة بالوجد والنشوة:

- لا تفكر في هذه الأمور الآن، اعتنِ بصحتك وسيكون كل شيء على ما يرام...

ثم التفتت نحو أخيها، وضعت يدها على يده، خاطبته:

- أما أنت يا مدلل لا تبكي من أولها، متى تكبر ؟ كيف تهددنا بالرجوع إلى هانوفر ونحن غادرنها قبل يومين مرغمين، هل نسيت لماذا رجعنا إلى هنا؟ أم أنك تعبِّر عما في داخلك بكلمات لا

تمت للواقع بصلة؟ قلنا نرفض لو طلبوا منا الإقامة في مُدن بعيدة أو صغيرة، لكننا نبقى محددين، لا نستطيع التأثير أو الاختيار، نحاول، نعم، نحاول بطرق شتى والله سيساعدنا بالتأكيد، نقول لهم مثلاً ، بأن آدم مريض ، أجرى لتوه عملية ويحتاج إلى عناية ومراجعات إلى المستشفى أو شيء من هذا القبيل، تفاءل يا رجل، غيِّر نظرتك السوداوية السريعة للأشياء، تمعن فيها قبل أن تحكم، نسيت جلستنا في باحة الشقة عندما كنا قبل عامين ونيف في الحبانية ماذا قلت لك وقتها؟...

قاطعها وهو يصفق أصابعه في الهواء دليل الخجل:

- لم أنس، أعتذر عن تسرعي بالجواب... سأسمع كلامكما وما تأمرانني به أفعله.

نهضت، قبلته من رأسه وهي تردد على مسامعه:

- وماذا فعلت بعد ذلك؟ تابعت دون وقفة: وشيتنا لأهلي عندما رأيتني مع آدم في المنصور، ثم دفعتني للانتحار... هل نسيت؟ لا عليك، سامحتك منذ زمان يا كمال، ليس لسبب، بل فقط لأنني متأكدة بأن في داخلك طفل بريء لا يحسن التصرف ولا يعرف كيف يتحكم في مشاعره وعواطفه.

افترشت على وجهه ابتسامة حلوة، سطعت في عينيه الزرقاوين لمعة تخطف البصر جميلة.

همهم آدم بجلسته غير المريحة:

- أنت رائع يا كمال... ثم بخبث بريء، أضاف: لا تصدق قولي، فأنت تكون رائعًا فقط عندما تبدأ تفكر.
أطلق كمال ضحكته متناغمًا ما ردده نسيبه... علت القهقهات بصفاء في أجواء الغرفة الكئيبة العارية الصماء.

• • • •

بعد الظهر اتخذت أنهر مكانها في الممر الفاصل بين غرفة السكرتيرة وغرفة مدير الهيئة الإنسانية التي كانت وقتها مغلقة وضوء نزير يصلها عبر فتحة الباب المقابلة لها حيث تجلس السكرتيرة كارين الجميلة التي تركت وظيفتها فيما بعد ورجعت إلى مقاعد الدراسة في الجامعة رغم تخطيها الثامنة والثلاثين برغبة محمومة لتحقيق ذاتها، محبة، ضحوكة، وترغب بصداقة الأجانب، مخالطتهم والتعرف عليهم عن قرب... نادت أنهر بطرف ضاحك بالإنجليزية من مكانها وهي تمط كلماتها:
- هل يمكنني مساعدتك؟
ارتبكت أنهر للحظة، وعت على نفسها، خرجت من دهشتها:
- الحقيقة، أعني، انتظر المثول أمام السيد يعقوب لسؤاله عن عمل لي ولزوجي...
- هو الآن في اجتماع مع مساعده السيد تيفود، ربما يتأخر قليلاً عن لقائك، لماذا لا تأتين إلى هنا؟، تعالي...

قامت أنهر بخُطى واثقة ، دخلت غرفتها ، جلست على كرسي خشبي عاري الطلاء بلا مساند مقابلاً لطاولة كارين ، فباغتتها بلباقة متمرسة بحكم طبيعة عملها في مكان تلتقي فيه كل ساعة عشرات اللاجئين من مختلف الجنسيات والقوميات:

ـ ما اسمكِ؟ ومن أين أنتِ؟

ـ أنا أنهر بنت الرافدين... ضحكت واضعة يدها الصغيرة الجميلة على فمها ثم تابعت بعد برهة قصيرة جدًا : أعني ، من العراق صاحب الشجن والمحن، أصل الحضارات، منتج الويلات، وأينما تكون الإشكالات يكون بلدي طرفًا فيها... جئت مع أخي وزوجي.

ـ ها... هذا رائع ، أقصد ، لا يوجد هنا لاجئون كثر من العراق ، ربما أنتم العائلة الوحيدة التي حضرت طالبة اللجوء رغم الظروف الاستثنائية التي يمر بها وطنكم، ثم أردفت بحماس: أنا كارين سكرتيرة المدير الذي تنتظرين مقابلته.

وقفت بطولها الرشيق الجميل، مدت لها يدها النحيفة وهي تقوس ظهرها ، فظهرت تنورتها القصيرة المزدهرة بالأزهار والألوان وبانت ركبتاها الجميلتان الناصعتان البياض كلون وجهها الذي يطليه النمش الفاتح، وجزء من فخذيها... تفاعلت أنهر مع وقفتها بكل احترام، صافحتها بوقار ، ثم أخذت منها رقم هاتفها المنزلي وعنوانها واعده إياها بزيارتها مع كمال وآدم عندما تسمح ظروفهم، وبقيت تتبادل معها أطراف الحديث حتى دخلت عليهما الموظفة سلفيا السمينة الحمراء وسيجارتها في فمها كالعادة بفستانها العريض المتهدل الطويل الذي يزحف خلفها على الأرض

وهي تمطرهما برنات قهقهاتها من بين أسنانها البيضاء كأنها تهلهل، سائلة باستطلاع حار يعود إلى طبيعة متأصلة فيها:

- ها... من عندك؟ أرى النور كله يسطع من غرفتك عزيزتي كاترين... وهي تنظر لأنهر بنهم مواصلة قهقهتها: هي، هى، هى.

- سلفيا... تفضلي بالجلوس.

ثم فرعت طولها مشيرة لأنهر بيدها كأنها تدلها عليها:

- هذه أنهر من بلاد الرافدين كما ذكرت لي.

باغتتها بسؤالها غير المتوقع لسلفيا:

- هل تعرفين شيئًا عن تلك البلاد؟

وهي مازالت تضحك وكرشها يهتز:

- طبعًا أعرف تلك البلاد، وهل هناك من لا يعرفها؟ ماذا تظنين؟ جاهلة أم غبية؟

- كلا يا عزيزتي لم أقصد.

- بالتأكيد لا تقصدين وإلا ما كنتُ جعلتك أفضل زميلة واتخذتك أجدر صديقة.

مدَّت يدها لأنهر مرحبة، الأخيرة وقفت تحييها مع انحناءه بسيطة تدل عن ذوق وشعور مرهف، ثم بدأت سلفيا بالحديث عن العمل مع كارين بلغتها التي لا تفهم منها أنهر حرفًا... حتى سمعت السكرتيرة باب غرفة مديرها يفتح ويخرج منها زميل عملها تيفود التركي المربرب صاحب اللحية الكثة بقميصه المطرز بالورود الواسع الفضفاض فوق بنطاله يغطي كرشه وجزءًا من فخذيه

كالقمصان التي يرتديها رجال أمريكا الجنوبية بميوله التي أقل ما يقال عنها تعود للص محترف وهو مازال يتحدث مع مديره سائرًا على عكس ما يخبئه قلبه وفي وجهه انعكاسات عليلة ربما كانت عقاب الله لِما تقترف يداه، متجهم العينين رغم ما يبديه من مرح وفرح، يترنح بخطى واسعة حربية كأنها تعود لضابط متقاعد عتيد، لكن، لا يمكن أن يختلف أو يتجادل اثنان في طبعه، على أنه رجل وقح مفرط بالتصنع مثل مهرج سيرك وتصنعه ذاك كان يزيده خبثًا وشرورًا، متملقًا، متزلفًا كمن يسيل لعابة شبقًا مخاطبًا مديره السوداني الطيب:

- سيحصل، لا تقلق، كل شيء سيكون على ما يرام...

أشارت كارين لأنهر بأن تدخل على السيد المدير وتقدِّم نفسها له بعد أن أخذت منها وعدًا بأن يرسم لها زوجها بعد أن يتعافى علم العراق لشغفها به وحربه الدائرة التي تلعلع راقصة عنها الألسن.

باسم الثغر قام سيد يعقوب مرحبًا بأنهر، وجدته على غير ما توقعتْ: رجل وسيم رغم سمار بشرته، فهو ينحدر من أصول سودانية، حاصل على بكلوريوس هندسة الميكانيكا من جامعة ميونخ، تدرج في الوظائف الإنسانية حتى تبوأ منصب مدير هيئتها في مركز اللجوء العام للمدينة.. طلب منها الجلوس بلهجة رقيقة مليئة بالرأفة سائلاً إياها عن وضع العراق والأخبار التي تعرفها ورأيها بالكايزر الذي لا يستحي حسب قوله:

- ما الذي يفعله صاحبكم؟...

تابع بلهجة مليئة بالاستهزاء ، متهكمة كأنه ينوي مناكدة أحدهم بغية أغاظته:

- ماذا لو لم ينسحب من الكويت ؟ سيطقطق الأمريكان ودول التحالف عظامه ثم يطحنونها في الهون كما تُطحن أعواد القرفة... المسألة التي يواجهها العالم ليست لعبة ، هناك بترول ، مصالح ومشايخ!، ماذا يعتقد الصول ابن الخائبة ذاك؟

استمعت له أنهر منكسرة الخاطر ، مهضومة، حزينة وحزنها بان على صوتها الذي ضعف:

- نحن كعراقيين لا حيلة لنا؛ التاريخ مليء بالأمثلة التي جعلت من بعض المرضى بداء العظمة يقتلون شعوبهم ثم ينتحرون، وهناك من لم يجرؤ ويفعل ذلك فيولي هاربًا خائفًا مختبئًا... هذا ما أتوقعه حسب وجهة نظري في أقل تقدير لما سيحصل ، كايزرنا جبان كسمك "الزوري" (•) يبلبط، لكنه لا يستطيع المقاومة، يشعرك بأنه حي لكنه سريع الصيد والالتقاط ، لذلك ، أتوقع بأن تكون نهاية الكايزر مأساوية بعد أن يزرع الفقر في الأرجاء ويعم الدمار والخراب في الأرض الخضراء والجدباء، وقتها سيتراجع الخير وتصبح القيمة الحقيقية للأشياء لا تساوي قملة أو نملة والإنسان أرخصها.

• سمك الزوري : نوع من أنواع الأسماك المعروفة في العراق ، صغيرة الحجم ، تعيش غالبًا في بحيرات الأهوار جنوب العراق.

تأثر السيد يعقوب بكلامها، شعر بوخزه في صدره، أنهر تحدثت عن المستقبل وكأنه موجود أمامها، دُهل من فراستها، همهم خفيض الصوت مواسيًا:

- أتمنى ألا يحدث هذا...

- ومن يتمنى ذلك؟، أضافت مشاكسة على حين غرة: الشيطان بعظمته ربما لا يستطيع أن يتحمل المأساة كما وصفتها لو حصلت فينهار وربما يترك عمله!... قالت ذلك تغييرًا للموضوع الذي أحست بأنه تطور إلى حد الحزن والكآبة، حاولت أن ترده إلى واقعها وما من أجله أتت بعد أن أجابته بصدق متناغمة مع أحداث الواقع المرير الذي يعيشه بلدها الجريح فعرجت تطلب منه عملاً لها ولزوجها لمعرفتها بأنها تأخرت كثيرًا على آدم المريض.

شرح لها بكلماتٍ ظلَّ يلوكها قبل نطقها بطريقة فنية جميلة متمرس عليها؛ أصول ونظام العمل المتبع في مركزهم وبأنه لا يسمح للعمل إلا بأجور رمزية سألها عن ظرف زوجها ودراسته وما يحب أن يعمل وهو يطلق كلماته ببطء سلس متعود عليه كراهب في دير، ثم بشّرها بإمكانية استلام وظيفتيهما فورًا إن أرادا، على أن يساعد آدم مساعده التركي تيفود التي تجهل طبعه وشروره، مضيفًا بأن هناك رجل آخر تركي يتحدث العربية كان قد بدأ العمل معه اسمه آزار سيرتاح له زوجها لطيبته ويمكن له أن يطلب تغيير عمله لو لم يشعر بالسعادة... في حين عرض عليها بأن تستلم مخزن توزيع حافظات الأطفال التابع للمركز مبسطًا لها سهولة طبيعة عملهما وأنه لا يحتاج إلا القليل من التركيز خاصة

وهما يتحدثان الإنجليزية مما سيساعدهما على التحدث مع أغلب طالبي اللجوء رغم تعدد وتنوع جنسياتهم، ثم مدَّ يده نحو درج مكتبه وأخرج منه علبة معدنية صغيرة كالعلب التي توضع فيها الحلوى وأخرج منها نقودًا ورقية عدَّها أمامها ثم سلمها لها، قائلاً:

- هذه ثمانون ماركًا؛ لكِ أربعون ولزوجك مثلها راتبكما مقدمًا لشهر قادم ربما تكونان بحاجة إليه منذ الآن.

رفع يده، سلمها الأوراق النقدية، كانت عبارة عن أربعة أوراق من فئة عشرين ماركًا، ثم تحسس الدرج ثانيةً يبحث عن شيءٍ ما أخرج دفترًا صغيرًا في بطنه ورقة شفافة زرقاء تستعمل لطبع ما يكتب فوقها تحتها وكتب اسمها واسم زوجها وتاريخ اليوم وسبب الدفع وقدمها إليها بغية النظر فيها وتوقيعها.

انتهت المقابلة على أتم شكل بالنجاح الساحق... صافحته بقوة، شكرته على معروفه ومساعدته، خرجت من مكتبه والفرحة لا تسع قلبها الصغير الرحيم، مشرقة الوجهة متهللة الأسارير، طائرة من السعادة بعد أن عمَّرت روحها جذلة بصنيعها وما سيجعل حبيبها مغتبطًا مثلها.

(٦)

الذكاء هو السعادة... متى ما حققتها تكون قد حققت رغبة الله فيك وأنت على الأرض

وقتها كان آدم يلوب ، يتقلب على جنبه متأثرًا بالآلام التي ما برحت تزداد في كل دقيقة، آلام لم تكن صادرة من مكان العملية التي أجراها، بل في منطقة قريبة منها وهذا ما أفزع أنهر عندما وصلته محملة بالبُشرى التي لم يسعفها القدر لسردها وتبشير زوجها بحصولهما على العمل وراتب مدفوع مقدمًا لشهرٍ كامل... وما أن رأت حبيبها يصرخ متألمًا حتى تفاعلت بشكل لا إرادتي مع صرخته بقولها:

- الشنق أهون عليَّ من أن أراك مريضًا تعاني وتتألم، ما الذي يؤلمك يا حياتي؟.

برنة متراخية:

- هنا...

وهو يشير لها لمنطقة قريبة من فخذه بجانب العملية التي مازالت ضماداتها لم تتغير بعد... قاطعته واقفة وهي تهم باستدعاء الإسعاف بعد أن لم يقدر زوجها من كظم صراخه الذي بدأ يعلو متقطعًا كامرأة في حالة ولادة... هرعت راكضة وكمال يلوك طعامه جالسًا لا يعرف كيف يتصرف، نهض خجلاً من سلبيته

الباردة، ترك طعامه وفمه مازال يلوك لقمته الأخيرة، اقترب من نسيبه بعد فترة صمت طويلة، نطق كحمارة بلعام [*] مقدمًا خدماته ثم لاذ بالصمت من جديد كمن أصابه الخرس، خرس سمكة الشبوط... آدم كان وقتها يتلوى بتركيز غير واعٍ لما حوله بسبب الألم الذي نغّص عليه يومه... ولم تمض إلا دقائق معدودة حتى كان المترجم فرياد فوق رأسهم بصحبة فريق الإسعاف والطبيب يتقدمهم، بعد معاينة سريعة وفحص بسيط تم نقله مرة أخرى إلى ذات المستشفى تحت وطأة ذعر زوجته غير الطبيعي بعد أن كانت دموعها قد انبجست في عينيها الخضراوين الجمليتين فالتمعت لآلئٌ على أطراف أهدابها الطويلة.

• • • •

في المستشفى كان الذعر سيد كون أنهر؛ غابت عن إدراكها تمامًا وهي تستمع إلى قول الطبيب الذي كان فرياد يترجم لها ترجمة فورية كل حرف يلعلع به لسانه وهو يردد على مسامعها بأنه جاز له استئصال طفح جديد ظهر بالقرب من مكان العملية وجرحها الذي لم يجف بعد... انهارت أنهر وهي تسمع تلك الكلمات التي جاءت وقعها عليها كأنها سكاكين تقطع أوصالها، جف حلقها،

---

[*] حمارة بلعام: الحمارة التي ركبها الرسول بلعام وبعد أن رأت ملاك الرب نطقت فجأة ـ التوراة.

تعثر لسانها، أبى النطق، تحجرت الكلمات في فمها ولم تخرج، بكت بصمت، الدموع لغة لا قاموس لها، أنهر تعرف ذلك جيدًا، آدم حبيبها منهار تحت وطأة الجراح والالآم، توقف الزمن عندها، لم تعد تهتم إلا بنبض زوجها، تدحرجت الكلمات ممزوجة بدموعها مستفسرة عن الأسباب... جاء الرد حاسمًا، النظافة أولاً، ثم الشكوك التي ما برحت تزداد، إصابته بداء السكري!...

بعد ساعتين من الانتظار خرج آدم من غرفة العمليات يئنُّ حاجلاً في مشيته كما يحجل الغراب... ركضت نحوه أنهر، أخذت يده، قبلتها بحرارة لا توصف، كادت تنهمر دموعها فكبحتها بإرادة من حديد من أجل حبيبها كيلا يتأثر بمنظرها، قادته نحو متكأ أبيض قريبًا منها، طلبت منه أن يستريح فاعتذر لعدم قدرته على الجلوس ثم عبَّر عن رغبته بمغادرة المستشفى فورًا... تقدم منه نسيبه كمال ماسكًا يده، وفرياد المترجم خلفهم يردد كلمات غير مترابطة لا معنى لها.

في طريق عودتهم أخبرته بما حصل معها مع مدير الهيئة الإنسانية السيد يعقوب وكيف حصلت على عمل له ولها براتب مدفوع مقدمًا، وما أن سمع كمال ذلك حتى انتفض داخله حسدًا وقهرًا، ناصبهما العداء دون أن يشعر بأنه يسير نحو هاوية الشر وهو الساكن معهما في غرفتهما ومن أجله فقط حاربت أنهر وفعلت المستحيل كيلا يكون بعيدًا عن نظرها!.

في صباح اليوم التالي كان آدم يشعر بتحسن بعد ليلة هادئة نام فيها في حضن زوجته التي لا يعرف كيف يرد لها فضائلها حسب تعبيره الذي لم ينقطع من ترديده كلما سنحت له الفرصة في إبداء إعجابه بأنهر... تناولوا فطورهم ثم نزلوا حسب الموعد المحدد لهم للمثول أمام قاضي التحقيق لتسجيل أقولهم ثم فرزهم وترحيلهم إلى محل إقامة ثابت آخر غير معروف جهته أو ميعاد ترحيلهم...

قابلتهم لحظتها المترجمة التركية على الباب وهي تنظر لآدم بأسى نابرة:

- ماذا جرى له؟ لونه شاحب ولا يستطيع حتى الوقوف، كيف هذا؟

ثم تقدمت من أنهر هامسة كمراهقة خجولة:

- اسمعي يا عزيزتي، لقد أحببتكم من أول يوم رأيتكم فيه هنا، هذه الأيام يسفّرون اللاجئين إلى مناطق نائية بعيده، قرى غير موجودة على الخرائط، لو ذهبتم إلى هناك لهلكتم...

قاطعتها أنهر مرتابة:

- لكن كما ترين ، زوجي مريض ، أجرى عمليتين في الجزء الأعلى من فخذه خلال يومين فقط...

ثم تابعت بصوت دافئ حريصة كل الحرص على أن تخرج كلماتها دقيقة ومقتضبة:

- بماذا تنصحيننا إذن؟

- لا وقت عندنا ، سيناديكم القاضي حالاً ، سأدخل له وأقول بأن زوجك انتكس فجأة حتى يؤجل موعد مقابلتكم كسبًا للوقت وبعدها يحلها الله.

دون أن تسمع جوابًا دخلت على قاضي التحقيق ومن هناك اتصلت بسيارة الإسعاف ثم خرجت متوترة كأن ما تقوله واقع حال وهي تطلب من آدم تمثيل دور المنتكس كي يصدقوه، ثم فرَّت هاربة من وجههم لا يعلم أحد إلى أين ذهبت، تركتهم في حيرة من أمرهم لا يعرفون ما ينتظرهم كأنهم أُصيبوا بالبُكم ينظر بعضهم لبعض دون أن يفهموا ما يدور حولهم، وما سيحصل.

حضر الفريق الطبي خلال دقائق قليلة كالعادة، تكلم معهم الطبيب بضع كلمات بالإنجليزية، فحص ضغطه، أشار بأن يذهب معهم لإجراء اللازم.. تدخلت أنهر متوسلة بأن تصطحبه، وافق الدكتور دون تردد.

وهكذا رجع آدم من جديد إلى المستشفى التي غادرها في الأمس محاولاً أن يجيد دور المتألم ولم يقدر على التمثيل إلا بالكاد.

• • • •

لم يبقَ آدم في المستشفى غير ساعة ونصف، المسرحية انتهت بسرعة كما كان متوقعًا، مثل هذه الأمور لا تنطلي على الأطباء الألمان، قالوا له مجرد تعب نفسي لا أكثر، تحتاج إلى الراحة والاستلقاء، ثم سرحوه.

خرج بصحبة زوجته قافلاً إلى مركز اللجوء ولم يستفيدوا شيئًا غير تمديد زمن إقامتهم في المركز كما نصحتهم المترجمة التركية

وعملت على ترسيخ فكرتها ونجحت في ذلك... استقلوا مترو الأنفاق الذي باتوا يستطيعون ببطء قراءة خرائط شبكته العنكبوتية.

قبل صعودهما إلى غرفتهما عرجا إلى غرفة الألعاب والتسلية لمعرفتهما بأن كمال سيكون حتمًا هناك يعمل، وبالفعل وجداه... ضحكت أنهر ما أن رأت أخاها منهمكًا مع أحدهم يلعب كرة المضرب وهو يصرخ ويلعن بسبب خسارته وتأخره عن منافسه، صاحت به أخته معاتبة:

- ماذا تفعل عندك يا كمال؟

نظر لها مرتبكًا، ناح:

- ألعب... صحَّح كلمته بعد أن شعر بأنه أخطأ، قال: أقصد أعمل... رفع المضرب عاليًا، نظر حوله، وجد أحدهم ينتظر دوره، سلَّمه المضرب ودعاه للعب، اقترب من آدم يسأله عما حصل معه في المستشفى وهو يطلق ابتسامه مشفوعة بالمكر.

بعد أن أطمأنت على زوجها تركته لاستلام مفاتيح مخزن حافظات الأطفال للمباشرة بعملها كما وعدت بذلك مدير المنظمة الإنسانية السيد يعقوب...

المخزن يقع بجانب غرفة الألعاب التي استولى عليها كمال مباشرةً لا تفصلهما إلا باب خشبي رصاصي اللون متين كأبواب السجون، وما هي إلا لحظات حتى وقف على رأسها رجل وامرأة، قدم الرجل نفسه بأنه يشتغل في المساعدات الإنسانية متطوعًا قادمًا من كندا يدعى هنري، ثم أضاف مقدمًا زوجته جون التي تقوم بذات

العمل لكن داخل المركز وليس كعمله الذي يتطلب منه جلب الأشياء العينية من قطع أثاث وملابس وحاجات غيرها من الناس المتبرعين ونقلها إلى المركز ثم يتم توزيعها على اللاجئين مجانًا... تحدث هنري مع أنهر بلغة إنجليزية رقيقة هادئة واضحة لرغبته غير المعلنة على أن يوصل المعلومة لها بأبسط المفردات. كان رجلاً أبيض البشرة، حليق الوجه، طويلاً وعريضًا، نبرة صوته متميزة تنقط رحمة، وفي وجهه ملامح لا يستطيع الأعمى إغفالها أو تجاهلها تنطق بالسلام والأمان، وزوجته رفيعة العود، لبقة، سريعة الحركة، تحب العمل حدَّ العبادة، وذات شخصية قوية كأنها فلاحة تصغر زوجها بثلاث سنوات... تقدمت أنهر منها حضنتها وقبلتها، شعرت فجأة كل منهما بعاطفة جياشة نحو الأخرى وكأنهما يعرفان بضعهما البعض منذ زمن طويل، صدحت جون وابتسامة حلوة أشرقت وطافت على محياها مما جعلها أكثر نشاطًا وحيوية وهي في ذلك السن التي توقعته أنهر قد تجاوز منتصف حلقتها السادسة، ثم عرجت جون تسألها عن أصلها وفصلها وحياتها، وقبل أن تخرج مع زوجها أعطتها كارتًا ورقيًا صغيرًا مدونًا فيه عنوانها ورقم هاتفها طالبة منها أن تزورها مع زوجها وأخيها في أقرب وقت ممكن لمزيد من التعارف، وأنهر تضحك وتحكي وتهتز مرحبة مستقبله كلماتها بعفوية وترسل خصلات شعرها بين الحين والآخر إلى الوراء وتكمل ترحيبها وقبولها الدعوة بصدق منقطع النظير.

تأجل موعد مقابلتهم إلى إشعار غير مسمى ، أعطى ذلك دافعًا معنويًا قويًا لهم وأملاً متجددًا في البقاء في مدينة ميونخ، في حين بدأ آدم يستعيد صحته وعافيته بمرور الأيام، خاصة بعد أن استلم مهام عمله الجديد لمساعدة التركي تيفود بصحبة زميل اللجوء التركي طيب القلب آزار زوج السمينة المربربة طويلة اللسان التي تشاجرت مع أبي شاربة السوري يوم كانوا في الطابور ينتظرون رزقهم من المؤن الغذائية ، الموقف الذي تم التنويه من قبل بإسهاب حتى جاء اليوم الذي ظهر فيه غش وخداع تيفود وسرقته للمؤسسة الإنسانية التي من المفروض أنه يعمل فيها ويحافظ على ممتلكاتها لا أن يستولي على أموالها بطرق غير مشروعة؛ حين استبدل قطع الغيار لسيارته المرسيدس الخاصة على حساب الهيئة الإنسانية مقدمًا كشف الحساب لمديره السيد يعقوب ، وبعد أن تم كشف الجُرم الذي اقترفه اللص تيفود وبعد أن كشفوا على سيارة الهيئة نوع" فولكس واكن" المفروض أن تكون تلك القطع لها لتركيبها بدل القديمة حسب ما متفق عليه مع مديره وجدوا بأنه لم يستبدل فيها شيئًا... تم التحقيق معه وبعد الإدانة تم فصله من عمله فجاء عوضًا عنه السيد ألبرت البشوش المحبوب رغم سواد بشرته وكرشه يتقدمه بنظارته الطبية التي تعلو أنفه الأفطس ورنات صوته المجلجلة ترن في المكان القادم من غانا الذي لا ينفك عن الغناء والضحك طوال الوقت حتى كسب عطف وحب ممن حوله بسرعة فائقة لم يتوقعها هو نفسه وأولهم كان آدم الذي التحق من فوره مع آزار لمساعدته والعمل تحت أمرته حسب تعليمات مدير

الهيئة السيد يعقوب الذي كان كلامه يمضي في النفوس كالسحر... وهنا بدأت مرحلة جديدة من حياة آدم كانت أكثر سعادة وراحة بال خاصة عندما توطدت علاقته بالسيد هنري وزوجته جون اللذين كانا يحضران دائمًا للحديث مع ألبرت في شؤون تتعلق بالعمل.

• • • •

استدعى مدير الهيئة الإنسانية آدم في صباح أحد الأيام للتشاور معه في بعض الأمور التي تخص اللاجئين العرب لِما رآه من جدية والتزام وميول أدبية وفنية كان هو نفسه يهواها ويتعاطاها.

دخل عليه آدم بعد طرقتين على الباب وسماعه كلمة "هيرراين" (*) مختلج القلب، صافحه وهو يخطف منه نظرة مشفوعة بابتسامة عذبة... بادره السيد يعقوب بسؤاله عن صحته وعن ظروف إقامته في المركز، ثم حاصره مواجهًا بما كان قلبه يكنّه:

- أنت شاب لطيف وشخصيتك أعجبتني كثيرًا، كما أنني عرفت من زوجتك بأن لك اهتمامات أدبية وفنية أنا نفسي أمارسها كهواية وعليه أحببت التحدث إليك بشأنها...

توقف لبرهة وهو يتأمل آدم ليعرف مدى تأثيره عليه، ثم استطرد دافعًا كلماته تتدحرج من فمه ببطء كعادته عندما يكون رائقًا منبسطًا ومزاجه معتدلا:

---

* **هيرراين: كلمة ألمانية تعني تفضل بالعربية..**

- هذا من جهة، من جهة أخرى أريد معرفة رأيك بالشاب أحمد السوداني لقربك منه كما أعلم لأنه يود مشاركتي في تجارة ما اعتقادًا منه بأنني أملك مالاً!...

لم يود آدم مقاطعته، استمع إليه بحرص شديد وبعد أن شعر بأن السيد يعقوب أنهى كلامه بتوقفه، قال:

- أشكرك على إطرائك وثنائك، هذا من حسن ذوقك ودماثة أخلاقك سيد يعقوب، لكني في الحقيقة لم أفهم بالضبط الشطر الأول من حديثك، فكيف لي أن أساعدك أو أن أقدِّم خدماتي للمركز ؟... أما عن الشاب أحمد فأظنه ممتازًا لكنه يعول كثيرًا على إمكانياتك المادية، فهو لا يملك رأس مال غير الوقت، تبقى أنت صاحب القرار.

ضحك ضحكة رقيقة وهو يلوك شيئًا ما كان في فمه، أجاب:

- لقد حزرت بأنك ستكون واقعيًا وصادقًا في ردك لذلك طلبت رأيك، سأتدبر أمري معه... فيما يخص تعاونك معي في مجال الفن والأدب قررت أن أضيف إلى مسؤولياتك عملاً آخر بعد أن نويت أن أفتح مكتبة للمركز تكون أنت المسؤول عنها وسأطبع لك نتاجاتك الأدبية التي حدثتني عنها زوجتك السيدة أنهر مجانًا ونوزعها على القادمين الجُدد من العرب، وقتها ستحصل على بعض الدريهمات من صندوق المركز، كما أحببت أن تساعدني في رسم لوحة جدارية في غرفة حضانة الأولاد سأبدأ برسم خطوطها مع بداية الأسبوع القادم... ها، ما رأيك يا بطل؟

الدموع التمعت في عينيه ولم تنهمر كمن يخنق رغبات الجسد بطهارة الروح، نبر بصوت محاصر بالمفاجأة:

- أدهشتني بطرحك... تابع بشغف : ومن هذا الذي يستطيع أن يقاوم رغبة كهذه؟ أنا جاهز منذ اللحظة لأكون أمينًا للمكتبة كما سأجمع ما كتبت من قصص قصيرة وخواطر وأجلبها لك...

قاطعه السيد يعقوب بحسم:

- بشرط.

- ما هو؟

- أن نتعاون في ترتيب قصصك وتقوم أنت باستنساخها عند سكرتيرتي السيدة كاترين دون تدخل أحد لأن ليس هناك من يستطيع مساعدتك في هذا الأمر بعد أن أشير إليك كيف تقوم بهذا العمل وأنا موجود لأي استفسار أو سؤال.

كالطلقة بعد أن استولى عليه انفعال شديد:

- موافق.

- لكنك لم تقل لي رأيك في مساعدتي برسم اللوحة الجدارية التي نوهت عنها؟

ثم بضحكة ماكرة مقتضبة لها دلالة المحبة والاستقطاب:

- ربما لا ترغب في مساعدتي؟

- إطلاقًا ، لا تظن بي السوء سيد يعقوب... قال ذلك وهو يبتسم بعذوبة ورقة متابعًا: كل ما هنالك، أخذتني المفاجأة فلم أستطع أن أستجمع ذاكرتي وترتيب أفكار ذهني بالشكل الصحيح.

- آه، أمزح معك... لا تأخذ الأمور كلها بهذه الجدية والاندفاع.

ثم نهض وهو يردد:
- على بركة الرب... سأبلغك لاحقًا بالتفاصيل عندما أكون قد جهزت الغرفة التي سأجعلها مكتبة وأعطيك عنوان الدكتور العربي الذي يملك مكتبة في وسط المدينة تشتري منه على ذوقك الكتب التي سنعرضها للمطالعة داخل المركز مجانًا، عندما أكون جاهزًا للرسم سأخطرك.
وقبل أن يودعه آدم وأثناء مصافحته له نوه مضيقًا:
- قبل أن أنسى أدعوك أنت وزوجتك ونسيبك كمال ذلك الشاب الوسيم أن تنضموا لمجموعتنا التي سنحضر فيها احتفالية خاصة على ساحل بحيرة "شتان بيرك" الجميلة الساحرة مع أنغام الموسيقى البرازيلية التي ستحيي الاحتفالية الأحد القادم ويوم الاثنين نبدأ بتنفيذ ما اتفقنا عليه بعد أن أكون قد جهزت كل ما يلزم، ما رأيك؟
- يسعدنا ذلك، لكننا نجهل مكان البحيرة!، كيف سنصلها؟
- لا تقلق، سننطلق معًا في سيارة المركز التي تعمل عليها مع ألبرت زميلنا، كونوا يوم الأحد هنا عند العاشرة صباحًا وسنرجع كلنا كما سنذهب، لا تجلبوا معكم أي شيء سوى أنفسكم!
قال الكلمة الأخيرة وهو يطلق ضحكة ناعمة رقيقة...

خرج آدم من عنده وقلبه يضايقه لقوة ضرباته من سعادته يريد القفز منطلقًا في الهواء وهو يتجه نحو أنهر يحب تبشيرها ومشاركتها فرحته.

(٧)

العدالة وحدها لا تكفي ، لأنها لا تشفي الإنسان من شروره

فرحة حياة أنهر كانت الأخبار التي زفَّها لها زوجها والتي لم يسع قلبها الصغير استيعابها ، كادت أن يُغشى عليها ، لا تعرف كيف تتصرف ؛ هل تقفز ، أم تصرخ ، أم تضحك ، أو تفعل كل هذه الأشياء دفعة واحدة في وقتٍ واحد ؟ خاصةً بعد أن زفَّ لها طلب مدير الهيئة الإنسانية شخصيًا مساعدته في رسم جداريه كبيرة في غرفة حضانة الأطفال بالإضافة إلى طباعة قصصه في كتيب مجانًا... مثل هكذا أخبار تجعل من أنهر تطير في رحاب عالية لا يمكن حساب بُعدها... قبَّلته من شفتيه قبلة حارة طويلة اشتعل أثناءها وجدًا واشتياقا حتى طالبها بمضاجعتها وقتها ، رفضت بحنية غالبة كادت تبكيها لامتناعها من تحقيق رغبة زوجها كون أخيها كمال يمكن له أن يدخل عليهما في أي لحظة ، فظل آدم يتحرق رغبة وشهوة لم يستطع كبحهما إلا عندما ارتوى في اليوم التالي فجرًا بعد أن غادرهما كمال منصرفًا لأمرٍ لم يصرح به... الحقيقة أن ممارسة الحب بينهما كانت من أشقى الأمور وأصعبها بسبب سكن كمال معهما في نفس الغرفة مما سبَّب لهما أرقًا وإزعاجًا نفسيًا مستمرًا دون أن يشعر الأخير أو يساعد في حل هذه المعضلة التي باتت تتفاقم مع الوقت من غير أن يدري.

في تمام العاشرة صباحًا من يوم الأحد انطلقت بهم سيارة الهيئة الإنسانية كما كان متفق عليه باتجاه بحيرة "شتان بيرك" حيث تولى ألبرت قيادة السيارة وبجانبه جلس مديره السيد يعقوب وخلفهما كمال وآدم وأنهر، في حين شغلت المقاعد الأخيرة كل من الراهبة الأخت مارتين وسلفيا السمينة وكارين السكرتيرة الرفيعة الرشيقة بعد أن تصافحوا بحرارة قبل صعودهم السيارة وضحكات ألبرت كانت تجلجل منطلقة في الفضاء عبر نوافذ السيارة كالزغاريد التي تطلقها امرأة عربية في عز فرحتها.

كان الجو منعشًا يميل إلى البرودة، الهواء رطب قليلاً وأشعة الشمس خجلة لا يشعر المرء بحرارتها بعد... وما هي إلا ساعة حتى كانوا قد ترجلوا في مكان مخصص لركن السيارات... وقبل أن يترجلوا خاطبهم المدير بعاطفة أبوية تنقط عذوبة:
- يمكن لكل شخص أن يفعل ما يشاء على أن يكون تجمعنا أمام منصة المسرح في تمام الساعة الواحدة ظهرًا لتناول طعام الغداء سويًا، ثم لكم جولة حرة مرة أخرى ليكون تجمعنا هنا أمام السيارة عند الرابعة عصرًا.

وما أن أنهى خطبته حتى ترجمها لأصدقائه أنهر وكمال وآدم لأنهم لم يفهموا كلمة واحدة مما قاله بالألمانية...

جمهور كبير وحضور متميز أبهر أصدقاءنا الذين يرون لأول مرة في غربتهم تجمعًا احتفاليًا بهذا الشكل... الراقصون البرازيليون من كلا الجنسين كانوا شبه عراة بملابس خاصة

مطرزة بألوان وأشكال غريبة عجيبة والريش الملون على الرؤوس والأرداف يتهاوى في كل حركة يقوم بها الراقص أو الراقصة على أنغام رقصة السامبا المشهورة وأصوات الطبل والمزمار تخرم الآذان لقوتها والكل يدور فرحًا، ضاحكًا مترنمًا لا يشعر بما يحدث في الكون من مأساة كمأساة الحرب الذي اشتعلت نارها من جديد في منطقة الخليج بسبب سياسة الكايزر الرعناء.

عثر كمال على ضالته، وجد يوسف اللبناني الأصل الذي يعمل مترجمًا في مركز اللجوء هناك بصحبة فتاتين ألمانيتين لون شعرهما كسنابل الحنطة الناضجة بلون الذهب فلم يطق الصبر، اتجه نحوهم محاولاً التزلف ليوسف والتباهي بوسامته أمام الفتاتين لعله يحصل على مبتغاه ويصاحب أحداهن. الفتاتان كانتا لا تخليان من وقاحة ظاهرة، سواء في مشيتهما المترنحة المائعة، أو ألفاظهما العارية من الخجل أو من ملابسهما التي لو حسبناها بدقة لصدمنا بالنتيجة لأننا سنجدها أقل من ثلاث قطع لكل واحدة تستر بها جسدها الشفاف الأبيض الذي يلمع كأنه مغسول بالزيت للتو.

تصرف كمال أذكى ذكاء يوسف الحاذق الخبير بعالم الشباب والمرأة وجعله أكثر اتقادًا كالجمر الملتهب فقدمه إليهن على أنه من العراقيين الوافدين الجُدد، ولم يفته أن ينوِّه برجاء أن تكون اللغة المستعملة الإنجليزية لأن الأخير يجهل الألمانية... ثم غمزه بطرفٍ خفيٍّ منوهًا بأن الرفيعة الشقراء هذه صديقته، ففهم كمال إشارته فصافح الأخرى بحرارة زائدة وهو يقترب منها كأنه ينوي

شم عطرها... وهكذا انطلق الأربعة في الحديقة المطلة على ساحل البحيرة يتهامسون ويتغامزون، يتحدثون ويقهقهون، ثم استداروا حول الفرقة الراقصة الموسيقية واندمجوا معهم وكأنهم الطبالون والراقصون لا تميزهم عنهم إلا في ملابسهم... في حين اتجهت أنهر بصحبة آدم نحو ركن ساحلي من البحيرة كان أكثر البقاع هدوءًا حيث الطير والشجر، خرير الماء وحركة الأمواج الوادعة التي تناغي الطبيعة في نغم لا يكنّ سره إلا الله، المراكب الشراعية الهائمة على سطح البحيرة والتي تبدو من بعيد كفراشات بهيجة زاهية الألوان، صوت الريح البسيط يناغي الجبال التي تحمي البحيرة من خلفها كأنها تقف حارسًا لها في ليلها ونهارها... وهناك ظلا يتهامسان ويطلقان الغزل في كل كلمة ينطق بها لسانهما بعيدًا عن الضوضاء التي تقلق الأعصاب الصادرة من طبول ومزامير فرقة السامبا الصاخبة... كانت أنهر سعيدة إلى حد لا يمكن وصفه، أشارت لزوجها برنة ساحرة رقيقة:

- هل تعرف؟

- أعرف ماذا؟

- كم أحبك...

- يا الله... لماذا تبقين كل هذا الفيض العاطفي في قلبك، تخفينه ولا تبوحين به، ألا تخافين أن يتحول إلى كبت؟!... ثم مراوغًا وهو يقترب منها حد الالتصاق: وأنا كذلك، أحبك حد الهيام يا أنقى من البلور نفسه... خطف من شفتيها الوردتين الطريتين قبلة، تجاوبت معه أنهر، غرقت في بحيرة من اللذة، كانت لحظات رغم قصرها

بعمر الدهر لهما ، في الهواء الطلق ، أمام البحيرة ، تحت سمع وبصر الله، اندمجا كقطرتي ماء، أصبحا قطرة واحدة، لا يستطيع المرء أن يفرق بينهما... ظلا هكذا حتى وعت أنهر على نفسها خجلة ، تفرك خديها براحة يدها ، ابتعدت عنه خطوة ، أطلقت ضحكة عذبة وحاولت أن تزوغ منه ، تهرب ، فجأة ، أرادت أن تعيش الطفولة التي تحبها، البراءة الملتصقة في ثنايا وحنايا نفسها، اتجهت نحو البحيرة، دخلت في الماء تمشي مشيتها وكأنها ستقع، رفعت بقدمها ماءً ، نثرته في الهواء ، ازدادت من عفرتتها ، شيطنتها ، أخذت في يدها حفنة من الماء ورشتها على زوجها ، ابتعد عن مرمى هدفها ، لحق بها ، هربت منه بمرحٍ طاغٍ، نست نفسها ، عادت دون إرادة إلى عشقها الأول ، طفولتها وكأنها في الرابعة تمرح على كيفها... وقبل أن تحين فرصة الغداء بقليل سألها زوجها في لحظة شاردة مختلج القلب:

- ماذا عن وطننا يا أنهر؟

أحمرَّ وجهها فجأة، آدم أرجعها إلى واقعها الذي أرادت أن تهرب منه بعد محاولة منها أن تكتب لحياتها سطرًا جديدًا مختلقًا غير ما كتبه لها قدرها، قالت متوجعة وقلبها يخفق بقوة متسارعة:

- أتوقع أن يتم تقسيم بلدنا أو يتحول إلى منطقة نزاع على المال والسلطة.

- هذا ما توصلت إليه أيضًا وأخاف التصريح به... تابع بعد وقفة: المشكلة أن الناس يتجاوبون مع أعراض مرض الواقع وكأنه سحر

يمضي في النفوس دون شعور ، فنراهم ينحدرون كالحجر عندما يُرمى من أعلى قمة جبل بسرعة رهيبة نحو الأسفل دون أن يدركوا أن ما سينادون به وما يرغبون بتحقيقه ما هو إلا رموز وآثار محت وغلبها الزمن ، عفا عنها ولا تستحق منهم كل تلك العناية أو ذاك الاهتمام، ومع ذلك نراهم يركضون وراءها لاهثين كأنها الجنة الموعودة ، ناهيك عن الإشارات الواضحة التي تقول بأنهم سيحجمون دور المرأة ويكبحون حريتها الفكرية قبل الجسدية باسم الدين والهوية.

طأطأت أنهر رأسها نحو الأرض الصامتة الطيبة حاملة الأسرار كالبحر ، هي تعرف سر الأرض ، تقدِّرها كما تقدِّر خالقها... نظرت إلى زوجها متحسرة، منزعجة، متألمة وداخلها بدأ يصرخ بألف سؤال: لماذا نحن؟!...

انتبهت على نفسها، طفقت:

- يا ريت يا آدم لو كانت مشكلتنا التي نعاني منها مادية اقتصادية لهانت... وكما ذكرت ، السلطة والاحتكار وتحت مسميات كثيرة ، منها العقيدة وأخرى الشريعة سيجلبان الخراب لوطننا...

توقفت لبرهة، أخذت نفسًا عميقًا وهي تقترب منه، أردفت محاولة منها لوضع حدًا لقهرهما المتصاعد:

- بالحق، ماذا يعني لك المال؟ كلمني عنه...

قاطعها بابتسامة وهو يسحب يدها ويضمها إلى صدره:

- على رسلك يا حبيبتي، أراك ابتعدتِ عن صلب الموضوع تهربًا مما سيؤول عنه مستقبل بلدنا... أضاف: لا عليك، سأجيبك وأمري إلى الله: المال يا أنهر فيزا، إشارة دخول، تتخطين به الحواجز والحدود، أوراق رسمية لا غير، وعندما تكونين مستقرة أو لا ترغبين في السفر لا تحتاجين لها، وعندما تُلغى الحدود؛ تُلغى النقود وتصبح عديمة النفع والفائدة، وجودها كعدمها... هكذا أنظر إلى المال، بمعنى أدق، وسيلة للرفاهية، للتنقل ورؤية ما حولك، أكثر من هذا لا تعني لي شيئًا. المفروض أصلاً، من يعمل يأكل وقتها لا يحتاجها، لكننا نحتاج ربما إلى بعض الوقت لكي يتفهم الإنسان الحاجة الحقيقية للنقود، متى ما توصل إلى تلك الحقيقة يكون سعيدًا، وقتها بل أستطيع أن أقول أبعد من ذلك، ساعتها ستطأ أقدامه الجنة وهو على الأرض... ثم أشار لها عامدًا: الأرض التي كنت تنظرين لها ساهمة قبل لحظات، لقد رأيتكِ وفسرتُ ما كان يجول في خاطرك من تناغم وانسجام وحب فطري للأرض التي نقف عليها ونقدرها حق قدرها وهي رمز العطاء الذي لا ينضب كالبحر... هناك يا أنهر من يعبد المال ويكون قد أشرك بالله دون أن يعلم. الكفر أنواع كما تعلمين مثل الخطيئة، هناك من يعبد اللذة، وآخر من يركع أمام السلطة ويقبل أقدامها، وثالث لا أعرف بماذا يؤمن وهم أنفسهم لا يملكون ولحقيقة الخلق والخالق لا يفقهون جهلة يعيشون، بوحدتهم وعزلتهم يعمدون كوحوش البرية يتكاثرون ثم إلى نهايتهم المحتومة يذهبون...

كانت زوجته تستمع له مبهورة كالحالمة، نبرت هامسة:
- كم أنا مسرورة يا آدم أن أسمع منك مثل هذا الكلام وأتعلم منه، لكن، يبقى المال هو رمز القوة في العالم، الضمان والأمان، مهما حاولنا أن نفسِّره بطريقة روحانية.

- كلا ، ليس كذلك صدقيني ، ولو فهم الإنسان ذلك لأصبحت الأرض والحياة عليها هي الجنة الموعودة التي يحلم بها ، لأننا سنكون متساوين في النصيب والحصص ، وبالتالي يختفي الشر تدريجيًا.

- ما مفهومك عن الأولاد؟ كيف تحب أن نربِّي أولادنا؟

- آه، دخلنا منطقة الخطر... قال ذلك وهو يضحك ومازال يمسك يدها... استطرد: الجزء الأساسي في الموضوع هنا والحيوي هو أنه لا يتوجب الخوف عليهم من الحياة!. لابد أن ندعهم ينمون طبيعيًا كما تنمو بذرة في الأرض مع مراعاة توفر الأشياء الأساسية لها ، كالرعاية والضوء والماء والتربة الصالحة ، كما تعرفين... غمزها بمكر وهو يتابع : بعد أن نوفر لهم تلك المستلزمات الأساسية في الحياة لا نقلق عليهم بعد ذلك من الحياة، بل العكس، نبارك لهم الحياة، وقتها سيثمرون ويتكاثرون من دون أن ندري أو نشعر مع التركيز طبعًا في تعليمهم وتنشئتهم على الفضيلة، الأخلاق الحميدة والتمسك بالدين وحب الله...
- حدثني عن الإيمان... قالت ذلك وهي ترنو ببصرها نحوه بشكل أخاذ كأنها تود رسمه ثم خفضت رأسها نحو الأرض، الأم الدائمة

الحنون، أدركت: لا أخفيك سرًا يا حبيبي، رغم ما نعانيه وما نحن فيه من وضع أشبه بالضياع أفكر بالصلاة والصوم... اسمع، هناك صوت يناديني من أعماقي، يشير لي بأن أقوم بممارسة هذين الطقسين لكنني مترددة بعض الشيء لأسباب كثيرة أولها فقداني للاستقرار النفسي الداخلي وعندما أشعر بأني قادرة على ترسيخ ذلك سأبدأ بعد أن أعطي وعدًا لله ولن أخلفه... لذلك أحب أن أعرف رأيك في الإيمان وكيف تنظر له؟

مماحكًا:

- أنا سعيد جدًا أن أسمع منك هذه التطورات الروحية والنفسية لكن هذا لا يمنع بأن أسئلتك اليوم كلها من العيار الثقيل... واصل: انظري، الإيمان الحقيقي هو أن يكون كما قلتِ نابعًا من الأعماق وإلا لا يصح لنا أن نطلق عليه إيمانًا؛ وكلما كان متجردًا من المصلحة الذاتية والأنانية كلما كان أكثر صدقًا وتقربًا من الله كالصلاة في عزلة والصوم الذي لا يعلم من أمره أحد سوى صاحبه. وعندما يشعر المتدين بأنه ليس أفضل من غيره بل أسوأ من الآخرين حتى لو لم يرتكب خطيئة مثلهم يكون ساعتها في قلب الله لأن الرب لا يحب المتعالين والمغرورين... الإيمان يا حبيبتي قوة تفوق كل القوى التي نعرفها، فيها تكمن سعادة الإنسان، راحته النفسية واستقراره الروحي، كما نرى هكذا إنسان يعلو في رحاب نجهل مصيرها ويسمو في طبقات تجعله يتحمل معاناة وآلام لا يتحملها نقيضه ضعيف الإيمان والتقوى، حيث يجلد المؤمن الصادق الصدوق والحقيقي ضميره في كل لحظة لإصلاح

شأنه والاقتراب من ملكوت السماء وقتها فقط لن يشعر باليأس أو الإحباط لأنهما أساس الشر كالكذب.

برنة إعجاب صافية:

- خوش(•)... ولكن ما مفهومك عن الحب؟

- وصلنا إلى النقطة الأخطر على الإطلاق... ثم صاح متجلدًا كحكيم زمانه: الحب يا أنهر باختصار شديد هو اللغة التي دونت وجاءت بها الأديان، ما أراده الله أن يترجمه ويوصله إلى خلقه وبه يتناسلون ويتكاثرون، يعيشون ويموتون، بالحب تكتمل الأشياء، تزهر وتثمر وتعطي أجمل ما في خلدها، بالحب يسود الصفاء والإخاء الإنساني، هذه هي الصورة الحقيقية التي أرادها الله أن تكون للبشر وهم على الأرض، فمتى كان الحب تراجع الشر واضمحل تلقائيًا دون صراع.

بنظرة حالمة طفقت مباغته لم يتوقع سؤالها:

- قل، ما رأيك في الدين؟

- الدين يا أنهر يا بنت الرافدين لا فكاك منه حتى وإن غلبت صبغة العلم وطغت وحتى لو تكابر العلمانيون بأقوالهم وأفعالهم فمرجعهم سيكون الدين لأن الأخير حظيرتهم وحاضنتهم بها ولدوا، عاشوا وترعرعوا وإليها يعودون، لابد من الامتثال لقدرة الله سبحانه، خالق الأديان والأكوان، فمهما كان تمرد الإنسان سرعان ما

• **خوش : جيد**

سيعود بعد زمان... اسمعي، لا حياة من غير دين؛ الدين قانون الحياة؛ هو من ينظمها ويرعاها ويحافظ عليها، وعلى الرغم من وجوده ومن كل ما تقدم نرى البشر يتصارعون ويتقاتلون ويأكلون بعضهم بعضًا، السؤال المهم هنا، ماذا لو اختفى الدين؟! ماذا سيصنعون بأنفسهم من دونه؟ أعوذ بالله لا أريد أن أتصور، مجرد تصور الحياة من غيره ستكون كارثة الكوارث من غير شك أو ريبة، ستكون الحياة فوضى عارمة، حمم بركان يغلي نارًا وصخرًا، سيل، فيضان، سيتحول الإنسان إلى مارد لا شيء يصده أو يرده أو يردعه، ستكون نهاية العالم، لكن هذا لن يحدث ولا أريده أن يحدث.

ترقرقت الدموع والتمعت في عيني أنهر دون إرادة منها، أشعة الشمس كانت سبب لفضح لمعانها بعد أن تعلقت دموعها على شكل كرات بلورية صغيرة على أهدابها، ومن خلف دموعها متماسكة، قالت:

- ماذا عن طبع الإنسان يا آدم؟

أخذ صفنة طويلة، صمت مكهرب امتد للحظات، هام فيها كناسك في طقس تأمل وجداني، مد يده نحو عبه، أخرج منها قصاصة ورق كانت مطوية، فتحها أمام عينيه اللوزتين، قال:

- اسمعي رأيي إذن في طبع الإنسان منذ الأزل في هذه القصة التي كتبتها قبل...

قاطعته قبل أن يكمل جملته صارخة:

- ماذا ؟ كتبت قصة قصيرة دون أن تقول لي ؟... أضافت : متى كتبتها؟... ثم رنَّ صوتها متوهجة بطريقة مسرحية مازحة: خيانة.

- على مهلك يا حبيبتي، الناس حولنا رغم قلتهم، أرجوكِ... تابع مستطردًا : هل تذكرين عندما ذهبتِ لمقابلة مدير الهيئة الإنسانية السيد يعقوب بخصوص البحث عن فرصة عمل؟ تأخرتِ وقتها كثيرًا، شعرت بالوحدة، كانت مريرة كالمرض، لم أجد نفسي إلا وأنا أمسك بالقلم دون إرادة وأدون هذا الذي أريد أن أقرأه عليك الآن، ثم ساخرًا:

- يا ستي الرحمة حلوة...

- خوش، هذا طبع جديد لم أعهده فيك من قبل! ، تابعت: حسنًا، سأصغي إليك، لكن حذار إن لم ترق لي، سأجعلها قضية رأي عام...

بنبرة من يعتز بنفسه لأنه يدهش الآخرين بحركاته وتصرفاته وكلماته:

- اسمعي وأحكمي بعد ذلك، وبحكمك سأكون راض:

عنوان القصة، الطبع الأزلي.

منْ يود الكتابة.. عليه أن يكتب وكأنه لا يكتب، ساعتها سيكتب أجمل ما في خلده

بصوت روح بطل القصة:

لست مجنونًا كي أتصور فعل النقيض!. ما أبشع ما سأرويه لكم... هل تسمعون صفير الريح مثلي؟ الريح لا إحساس لها مثل بعض

ضمائرنا !. مهلاً أرجوكم، ألا يكون جوابكم موسومًا بالحشرجة والنفي !. إي... لا... لا تجزموا بكلا وكأنكم واثقين !. لا أحد منا يمتلك الثقة المطلقة ولا المصداقية كلها. هل عرفتم الآن لماذا أكلمكم هكذا برحابة فكر وصدر ومن على علوٍ ؟! اقرءوا القصة حتى النهاية وأحكموا بأنفسكم!...

ما هي إلا حفرة باردة مظلمة يرقد فيها رجل عجوز حفرت على مقاسه بالضبط كبذلة عرسه مات منذ شهرين ولا شيء فوقه غير التراب يسأل نفسه بارتياب وبطريقة ساخرة ضارية:

- آه... يا ليتني استطيع الخروج من قبري لأحيا ساعة أدبُّ فيها على الأرض كما أشاء من جديد !. سمعه زميله الراقد بجانبه والذي مات قبله بيومين ومازالت روحه محتبسة تصدر آهات وتعتعات تأبي مفارقته متهكمًا:

- وماذا بعد ذلك ؟.. تابع بصوت متهدج مرتخي النبرة: أعني، ماذا تريد أن تفعل غير الدبيب الذي عنيته؟!

استغرب الصوت القادم، سأله مباغتًا بلا تحرج:

- منْ أنت؟

قهقهة بملء كبده الذي بدأ يتعفن ببطء:

- هىء... هىء... هىء، ثم أردف: أفزعتك، أليس كذلك؟

بصوت له رنين يؤذي السمع:

- أين ترقد؟

- أنا جارك الذي دفن قبل مجيئك بيومين فقط. وعندما ساقوك إلى هنا وقبروك فرحت، شعرت بأنني لن أكون وحيدًا في هذا القفر الذي تعصف وتقصف فيه الريح كأردية الأشباح... ثم أعاد عليه سؤاله:

- لم تقل لي، ماذا تنوي أن تفعل لو خرجت من قبرك؟

- لا أخفيك سرًا يا زميلي الميت الطيب؛ لقد عشنا الحياة ونحن لا نتورع عن الغش والخداع، بل لم تسر حياتنا إلا بخط موازٍ معهما لذلك سأصدقك القول من مكاني هذا الذي لا أخشى فيه شيئًا بعد، وماذا عسى أن يحصل أكثر من موتنا؟، أضاف: أريد أن أمارس نزواتي، وشهواتي، ورغباتي، وأستغل غيري كما كنت أفعل دائمًا حتى أموت مجددًا.

انبهرت من أسلوب القصة المتفرد الذي لم تتعود عليه في كتاباته السابقة، وجمت تنظر إليه بوجد حارق ملتهب، تقدمت منه خطوة وجلة، طبعت على جبينه قبله وهي تردد بلا انقطاع بعد أن أفلت عقال لسانها تلتهمه بعينين متفرستين بعد أن توسعتا فجأة:

- ما هذا يا آدم؟ انظر إليّ... قشعريرة سرت في كل جسدي، لا أستطيع السيطرة على حواسي، ما الذي كتبته؟ أجابت على تساؤلها دون أن تعطيه الوقت للرد: إنها فلسفة عظيمة اختصرت فيها تاريخ أجيال وأجيال، بل أستطيع أن أقول بلا مجازفة، بأنك وضعت فيها طبع الإنسان كما نوهت لعنوان القصة تمامًا، طبع البشر منذ الأزل... ولكن كيف؟ في أقل الكلمات عددًا ناهيك عن

التصوير الرائع الذي يجعل المرء يهاب ويخاف دون أن يدري ما يحصل له وهو يتابع...

وفي هذه اللحظة انتبهت على نفسها ، نظرت بغتة إلى ساعة زوجها نوع "ستزن أوتوماتك" تلك التي اشتراها أخوه مجيد له بعد أن أضاف الأخير على المبلغ الذي أعطاه له آدم دينارين واقتناها على ذوقه، وجدت الساعة قاربت الواحدة ظهرًا، نبرت:

- لابد من الرجوع الآن... قالت ذلك وطبعت قبلة سريعة على خده.

رجعا إلى النقطة التي أشار لهما بها مدير الهيئة الإنسانية السيد يعقوب وكانت الدالة منصة المسرح واتجها نحوها متشابكي الأيادي.

• • • •

كما اتفقوا... حضر الجميع قبل أن تعلن الساعة عن نفسها الواحدة ظهرًا بقليل في حين كان ألبرت بصوته الصادح وسنّه الضحوك قد هيأ كل مستلزمات الغداء بمساعدة السكرتيرة كارين بعد أن جلبا عدة الطعام والفرش من السيارة، فطائر تم تجهيزها من قبل، مرصوصة ومرصوفة بشرائح رقيقة من الجبن الأصفر الهولندي، وشرائح أرق من زميلاتهن من اللحم البافاري البارد المأخوذ من فخذ الخنزير التي رفضت أنهر أكله واكتفت بالفطائر المحشوة بالجبن ، في حين التهم كمال أخوها كل ما صادفه أمامه ، وبأقل

شهية كان آدم يأكل خجلاً لا يفوته أن يسرق بعض النظرات من مرح وفرح ألبرت الأفريقي مساعد مدير الهيئة الإنسانية لما له من طبع مازح يحسد عليه وكأنه يعيش بلا أحزان.

الأجواء كانت لا تحتاج إلى لغة للتعبير عن فرحتها وسعادتها ووصف نفسها ، الكل يضحك ويرقص ويغني ويدور ويأكل ويشرب ويقبل ويتهامس في تناغم عجيب وكأنهم متفقون... عادوا بعدها مرة أخرى إلى الاحتفالية حيث الموسيقى والرقص والفرقة البرازيلية تدور في الحديقة كأنها تذكر الجميع بطقوسها التي لابد من تأديتها... حتى حان وقت رجوعهم في الرابعة عصرًا وكمال ما انفك يتحدث مع أخته عن سيرة الفتاة الألمانية التي تعرّف عليها بصحبة المترجم يوسف اللبناني وكيف كان يصف سروره وغروره مختالاً بالنتائج التي خرج منها برقم هاتفها وعنوانها ، وأنهر تستمع له شبه منزعجة لعواطف أخيها التي وجدتها فائرة حارة لا تتناسب والوقت القصير الذي عرف فيها تلك الفتاة التي تدعى نادين ومعها ستبدأ حكاية كمال التي لن تنتهي بالخير حسب قناعة أخته.

(٨)

تطأ أقدام المرء الجنة في كل مرة يتصارح فيها بإخلاص مع ضميره

"نادين" فتاة ألمانية قروية تدرس مهنة الحِلاقة ومازالت في سنتها الدراسية الثانية ومدرستها في مدينة ميونخ في حين صالون الحلاقة التي تمارس فيه ما تتعلمه في قريتها النائية التي يقطنها أهلها تقع في جزء منسي من غرب بافاريا لا يتجاوز عدد سكان القرية ألفي روح وحيوانات القرية أكثر من عدد سكانها، شارع واحد رئيسي تناثرت حوله من كلا جهتيه حفنة من البيوت القديمة الخربة التي لا تسر الناظر ولا الخاطر لتهالكها، وكنيسة تعتبر من التراث لقدمها، لون أحجارها أحمر باهت وسقفها له نفس اللون مصنوع من القرميد، داخلها مثل خارجها، غامق، داكن لا يوحي إلا بالرهبة وربما العظمة الإلهية، تعاني العزلة والوحدة أثر قلة روادها والفراغ الذي يحيط بها من كل جانب، لا يصلها المرء إلا سيرًا على الأقدام أو بواسطة دراجة هوائية بعد جهد وعناء لوجودها على تله خضراء لا يصلها أو يَطلها إلا المطر والهواء، ومع ذلك كانت مصدر من مصادر التأمل وشعاع من أشعة الطاقة الإيجابية التي يحتاجها الناس في حياتهم خاصة وهم أحبوها كما هي وبهذا الشكل التراثي البسيط غير المزخرف الخالي من الرتوش والترف والبذخ والأعمدة المرمية الحمراء والبيضاء

والطلاء الذهبي الذي يطلي أحشاء بيوت الله التي نشاهدها هنا وهناك في أصقاع العالم المختلفة وهي تتنافس على الأبهة والرفعة والغلاء والعلاء وكأن الأمر لا يخص الدين أو وجه الله الكريم؟

لنادين أخت واحدة وأخ واحد؛ منحدرة من أب سكير لا يرونه إلا في المناسبات الدينية؛ يقيم عندهم بضعة أيام ثم يشد الرحال لا يعلم أحد في البيت إلى أين ولا حتى زوجته الرفيعة المصدورة المريضة أبدًا التي تعمل في مخبز القرية الوحيد الذي يملكه أحد الفلاحين الأغنياء على طرف من الشارع الرئيسي لمدة ساعتين في اليوم عند الصباح فقط... في حين سافرت "هايدي" أخت نادين وتصغرها بعامين إلى سويسرا منذ عام تقريبًا للعمل هناك في إحدى المحال التي تشتغل في المجوهرات حسب إدعائها ولا تنوي العودة في الوقت الراهن... بينما كان أخوها موسيقيًا يهوى الفن حد الجنون، يعزف على آلة الأورغن بمهارة يصعب تصنيفها، مصاحب شلة من الشباب لهم نفس الهوس المصاب به يسكنون في قرى مختلفة وغالبًا ما يجتمعون في كل مرة للتدريب وعمل البروفات في بيت من بيوتهم المترامية الأطراف، يحصلون على رزقهم من خلال ما يقدمونه من حفلات موسيقية متواضعة لا تذكر بالطيبة. هكذا كان أخوها الذي يدعى "دنس" يعيش تحت وطأة الفقر والحرمان إن صح القول.. لا يملكون المال رغم سكنهم الواسع الكبير والحقيقة هي أنهم لا يملكون منه طابوقة واحدة، لأنه ملك خالهم المهاجر إلى أمريكا منذ خمس سنوات وسمح لهم

عطفًا السكن فيه دون مقابل حتى رجوعه لمعرفته الجيدة بظروف أخته وزوجها السكير المجلل بالعار، الرحال أبدًا.

اتصفت نادين بالحيلة المخلوطة بالطيبة؛ مزيج يعتبر مألوفًا في ألمانيا كثيرًا! حيث الأغلبية يحبون الإزعاج النفسي، حشر أنوفهم في كل شيء، يتوددون ويمكرون، يغازلون ويغدرون، يعدون ويحنثون، يعزمون ولا يدعون، يضحكون، يأكلون، ينامون ولا يفكرون إلا في أنفسهم وكأنهم خلقوا عفاريت لا تعرف في حياتها غير التنغيص على الآخرين وجعل حياتهم جحيم لا يطاق...

نادين سمينة بعض الشيء، لون شعرها أشقر يميل قليلاً إلى الاحمرار، خدودها طافحة موردة كزهرة عباد الشمس الناضجة، سنّها قارب الخامسة والعشرين، يعني تكبر كمال بسنتين ونصف تقريبًا ومع ذلك تعلق بها فائرًا كسجين محروم من الحرية والعاطفة... تحب نادين الحركة لا تجلس في مكان، تتحدث كثيرًا كسائر شعبها، الفضول سمتها الأساسية التي لا يخلو منها فرد من قومها. وجدت في كمال حلمها، تعلقت به رغم فارق السن الواضح بينهما، وكمال لم يكذّب خبرًا، أحبها من أول نظرة، توله بها مشغوفًا وسيرتها لم تنزل عن لسانه لحظة، فأصبحت بمرور الوقت الشغل الشاغل له ولا يفكر إلا بها.

• • • •

فجأة وفي خضم الأيام المزدحمة المحملة بالآهة والأنين بالنسبة لأبطال الرواية ظهر قرار فرزهم وترحيلهم بهدوء مهين كان مخيمًا على الأجواء دون سابق إنذار في مكان لا يعرفون عنه شيئًا... أول من عرف بالخبر هو كمال، حيث وجد أسماءهم معلقة في لائحة خشبية خضراء على الحائط المقابل للبوابة الرئيسية لمركز اللجوء الذي يعملون فيه ويسكنون، وما أن قرأ أسماءهم هرع يبشِّر أخته بقرار تسفيرهم ظنًا منه بأن المكان وسط مدينة ميونخ بعد أن استفسر عنه، هذا ما كانوا يتمنونه، والحقيقة عكس ذلك تمامًا، كانت صادمة حدَّ البكاء.

حسب القوانين واللوائح المعمول بها يتوجب على اللاجئ الذي يخرج قرار تسفيره لسكن ثابت التوجه فورًا للمكان لتكملة أوراق التسفير خلال يوم واحد فقط وإلا سيجد نفسه ينام في الشارع لأنه لا يحق له الدخول مجددًا إلى داخل مركز اللجوء، وحتى ولو صادف له الدخول تحت أي حجة أو عذر لا يسمح له المبيت والنوم فيه بعد أن تسحب منه مفاتيح الغرفة وأوراق إقامته فيمنع من البقاء داخل المبنى إلا لغاية الساعة السادسة مساءً أو بتصريح خاص حتى العاشرة ليلاً كزيارة بعدها يُطرد شرّ طردة... لذلك استعجل آدم زوجته للذهاب إلى المكان المشار إليه بصحبة كمال لتكملة معاملة الترحيل واستلام غرفهم الجديدة الموعودة.. وهناك كانت المفاجأة، القشة التي قصمت ظهر البعير؛ كما يُقال.

• • • •

رقم المبنى ٤ شارع "هَسّ" وسط مدينة ميونخ المزدحمة بالسكان والأبنية والمحال التجارية والشركات العملاقة والسياح الذين يتنططون في كل ركن من أركانها العريقة الكبيرة التي تعتبر عالمية وليست أوربية فحسب... وبعد أن وصلوا منهكين مسرعين والأحلام تراودهم في الاستقرار والحصول على غرف تؤويهم من بعد عناء وشقاء؛ عثروا على المكان الموعود، وأول من دخل آدم ثم أنهر وبجانبها أخوها كمال حيث غرفة صغيرة مثل القبو شبه مظلمة لا تتجاوز مساحتها المترين المربعين تخلو من كل شيء سوى طاولة عتيقة سطحها متهالك باهت اللون يميل إلى الاصفرار كثير البقع متآكل من أجزاء كثيرة حتى بات لون سطحها لا يُعرف بالضبط كيف كان، وكرسي خشبي بلا مساند لا يقل قِدمًا عن أخته الطاولة، وفتاة ألمانية سمينة طافحة بالعافية وبان ذلك واضحًا من خديها الموردين ترتدي لباسًا أسود خفيقًا يظهر مفاتن جسدها المربرب أكثر مما يخفيه أو يستره؛ قامت مرحبة بالقادمين الجدد بتلكؤ واضح مندهشة من حضورهم المباغت على شكل عائلة دون أن تصرح بمخاوفها تلك واستغرابها الشديد وأول ما أظهرت الترحاب بأنهر باللغة الإنجليزية التي كانت تجيدها بطلاقة ورشاقة مما حاولت أنهر أن تركز كثيرًا لتجد عبارات تتناسب مع الموقف بعد أن سلمتها الأوراق التي بحوزتها والتي أخذتها من مركز اللجوء القادمة منه.

تلقفت السمينة الأوراق من بين يدي أنهر وقالت بطريقة آمرة:

- قبل أن نوقّع شيئًا لابد من رؤية المكان!

اندهش الثلاثة من فكرتها، حيث لم يمر عليهم من قبل موقف كهذا كأن يسألوا قبل أن ينفذوا ، ومن ثم ما نفع رؤية المكان وقد تم فرزهم؟ هكذا كان يفكر آدم بصمت دون أن يطرح عليهم أفكاره.

ساروا ببطء شديد تتقدمهم الفتاة الألمانية التي تعمل في السكرتارية بثوبها الشفاف الذي يرفرف في كل خطوة تخطوها فيهتز لوقعها قلب كمال من منابته وهو يخزرها بنظرات قاصفة مليئة بالشهوة الشرقية التي يحملها مع دمه في ممر ضيق خافت الإنارة عاري الجدران، والأرضية كانت من الإسمنت باردة كأرضية السراديب والسقف كئيب يميل إلى السواد رغم طلائه الأبيض تمتد على طوله أسلاك كهربائية كثيرة دون عناية أو ترتيب، حتى انتهى بهم المطاف نزولاً في فسحة كبيرة تحت الأرض بحجم ملعب كرة السلة مليء بالأشخاص من جنس الذكور فقط ، وأسرَّة رُتبت الواحدة بجانب الأخرى كقضبان السجن لا يفصلها عن بعضها البعض أي فاصل ، وكان الجميع في هرج ومرج وكأنهم في سوق... علقت على السقف كلاليب حديدية متدلية بحبال كحبال المشانق كانت بالتأكيد في الأمس القريب يعلق عليها الخنازير قبل ذبحها وسلخها!... هذا ما جعل أنهر تصرخ باكية وهي تتراجع لا تريد أن تتقدم خطوة أخرى نحو القاعة الكبيرة الغارقة بالضوضاء والضجيج ، والسمينة تشير لهم بأن أسرَّتهم ستكون وسط هذه الحفنة من الأسرَّة وهي تحاول أن تكظم حزنها ، أو امتعاضها

وربما ألمها لما آلت إليه ظروف هذه العائلة الشابة المسكينة التي تتكون من أنهر وزوجها ونسيبه كمال، العائلة القادمة من الشرق، من دولة تعتبر أغنى دول المنطقة وهي تريهم أسرَّة وسط حشد من الرجال على مختلف جنسياتهم وألوانهم وتقول لهم: هذا هو مسكنكم الجديد بأمر الدولة الألمانية مانحة اللجوء!

صحيح أن السكرتيرة السمينة ذات الثوب الأسود كانت مرحة فرحة وخفيفة الدم ولباسها كان يوحي بالحرية والانفتاح والتحرر الزائد، لكن هذا لا يمنع من أن سلوكها مع أصحابنا الذين صدموا بالمكان الذي دفعوا إليه دفعًا دون إرادة أو إخطار سابق يتصف بالعفة وطهارة الذيل كما يقال، حيث ما أن رأت أنهر تتقهقر وهي تجاهد بكل طاقتها كيلا تنفجر فاختلج قلبها ورقَّ لها، اقتربت منها بعد أن اختلط عندها العزم بالرأفة وهي توحي لها بإشارة من يدها البيضاء المنتفخة بالصحة والعافية على أنها لو أرادت أن تتخلص من محنتها هذه عليها أن تكون حاملاً، والإشارة كانت واضحة التي أومأت إليها بيدها، عبارة عن تكور في البطن، وقتها ستخصها بلدية المدينة بالرعاية وتوليها الاهتمام وتحصل على السكن الملائم، ثم بصوت يصطنع الحزم شرعت وهي تنظر لأنهر بأسى:

- الحقيقة، لا أعرف كيف طاوعت المسئول نفسه الذي بعثكم ليرسلكم إلى هنا وهو يعرف جيدًا أن هذا السكن الجماعي بغيض لا يناسب العائلات؟! كما أن المكان خال من الحمامات والمرافق

الصحية ! حيث يقضي الشخص حاجته هنا بالذهاب خارجًا إلى "كونتينة" (•) وُضعت على طرف الطريق خلف البناية، ويعطى الساكن هنا إيصال دخول للمسبح القريب من هنا من أجل أن يستحم ويغتسل... وبعد وقفة مقهورة عاودت الحديث وآدم يتأملها صامتًا مكسور الجناح لأنه لا يستطيع أن يغير الواقع ولا يعرف كيف يسعد حبيبته:

- كيلا أنسى، هناك عائلة واحدة عراقية قدمت قبل يوم وهي تسكن هنا تتكون من بنتين وامرأة عجوز أظنها أمهما. الصحافة كانت منذ قليل هنا والتقطت بعض الصور لهن وللمكان وهن في طريقهن لترحيلهن إلى مكان آخر لا أعلم أين لنفس السبب الذي ترينه أنتِ عزيزتي.

نظرت لها أنهر متلهفة لدى سماع كلمة عائلة عراقية، مندفعة سألتها:

- هل هن الآن هنا؟... وقبل أن تتلقى الجواب، تابعت: أين؟

تدخل كمال أخيرًا بعد أن فاق من الصدمة بقولة:

- عن أي شيء تبحثين يا أنهر؟ ما لنا وما العائلة العراقية؟ دعينا نرحل من هنا سريعًا ولا نوقّع على أي ورقة ونحتج عند مركز اللجوء وربما سيساعدنا في ذلك السيد يعقوب!

• كونتينة : غرفة من الحديد غالبًا ما تكون مستطيلة الشكل تخزن فيها الأشياء التي تشحن عبر السفن لدول وأماكن بعيدة ، وتستعمل كذلك لأغراض أخرى بعد تحويرها كأن تكون مرحاض أو حمام متنقل.

قرقر آدم فائرًا:

- كمال عنده حق، حيث علينا أن نسرع وإلا بتنا في الشارع الليلة أو هنا!

استوقفته أنهر بلطف دون شعور:

- دعنا نلتقي بهن لبرهة ثم نرجع، أرجوك...

- حسنًا... قال ذلك آدم وأشار للموظفة الألمانية برقة أن تدلهم عليهن.

نبرت السكرتيرة متفاعلة معهم بعاطفة جياشة كأنها تعود لملاك وهي تشير لهم بيدها الرائعة الجميلة:

- هناك، في الطرف الأخير من القاعة حيث تشاهدون تلك المرأة العجوز النائمة على السرير.. أضافت: نعم، هناك وبجانبها تجلس الفتاتان.

اتجهوا إليهن، بخجل سألتهن أنهر:

- هل أنتن من العراق؟

تفاجئنَّ، فزّت العجوز لدى سماعها كلمات أنهر من نومها وهي تنظر بطرف جانبي لها، ناحت بعد أن تنحنحت وتربعت على السرير جالسة بهمة غير متوقعة كأنها عادت لها الروح التي فارقتها قبل أيام:

- بلى يا بنتي، نحن من بغداد وهذه؛ وهي تمسك بذيل ثوب ابنتها الجالسة بقربها؛ ياسمين وأختها الكبيرة التي بجانبها فاطمة...

هبَّت الفتاتان واقفتين على عجل ، اقتربت أنهر منهن مرحبة ، تصافحنَّ بغير تكلف وكأنهنَّ يعرفنَّ بعضهنَّ منذ الطفولة ، مما جعل الفتاة الألمانية تبهت وتستغرب... عرّفت أنهر بنفسها وقدمت لهم زوجها وأخاها بالاسم ، ثم عرجت عن سؤالهن لمعرفة أخبارهن ، بسرعة كادت تأتي على قلبها وهنَّ يتجاوبنَّ معها بسلاسة وبساطة استغربت منها الفتاة الألمانية التي ما كادت تصدق كيف تم تعارفهم بهذا الشكل السريع، بعاطفة حميمة وألفة إنسانية غلبتهم، انتشرت بينهم، بانت وطافت على الوجوه ابتسامة على غير هدى أجبرتهم أن يعتذروا من الموظفة ويدعونها للذهاب للاهتمام بعملها بعد أن أفهموها بأنهم لن يقبلوا بهذا الوضع وسيرجعون من حيث أتوا، واستمروا بغياب سلطة الذهن مع تلك العائلة في حديث شيق نسوا الجميع أنفسهم فيه وذابوا تحت وطأة حرارته وشاعريته التي ألهمت قلوبهم بوجد وشوق عارم غرقوا في بحيرته بلذة ما من بعدها لذة غير سكرة الموت!.

(٩)

الموت لا يقهر الروح بقدر العبودية

الغربة عالم متناقض فريد من نوعه، شرس وطيب في نفس الوقت، حرية وقيود، رحمة وشر، انعتاق وتحرر، يقابله ذوبان وانسحاق وعجز... وحتى أخلاقيات الغربة تختلف عن أخلاقيات الوطن الأم، لا يعرف عالم الغربة إلا من يتذوق طعمه، ومهما قالوا فيه أو حاولوا وصفه يبقى متفردًا غريبًا لا يلسع إلا من يلمسه... مثل هذا العالم العجيب الذي يتحير فيه قلمنا عن إيجاد مفردات ترسمه لا تستطيع تلك الفتاة الأوربية التي تعمل مسئولة عن المكان الذي فرز فيه أصحابنا ولا يمكن لها التكهن لماذا تغيرت ملامح وتصرفات وسلوك المجموعة فجأة ما أن سمعوا ورأوا عائلة عراقية موجودة في نفس المكان فنسوا أنفسهم وما عادوا يفكرون بمحنتهم تلك التي تبكي الحجر لقسوتها.

عالم الغربة عالم حنين، مليء بالشوق والوجد، معجون بالتأمل والسرحان، يحب سكون الليل، صمت القمر، لمعة النجوم، حس خالٍ من الأنانية، ربما شعور المغترب وحنينه هو الحقيقية الثانية في الوجود بعد حقيقة الموت! ترى كيف نفسر هذا لتلك السكرتيرة التي لا ينقصها في حياتها غير متعة أو لذة جديدة تتوق لتجريبها؟!

في حين نترك التصور الباقي لذهن وخيال القارئ في حساب المأساة التي وضعت هكذا عائلات قادمة من الشرق في محنة كهذه، إذ كيف يمكن لفتاة في سن أنهر أن تنام وسط حشد من الشباب من مختلف الجنسيات والقوميات والثقافات واللغات دون حواجز تفصل الواحد عن الآخر هكذا وكأنهم يعيشون في العراء؟!

كانت العجوز العراقية من أصول إيرانية تجيد اللغة الفارسية والكردية بطلاقة ولباقة؛ نحيفة لها سحنة متميزة يمتزج فيها سواد الليل ولون العسل، ممصوصة الخدين، لها حنك رفيع مدبب، عينان صغيرتان تغلقهما وتفتحهما بسرعة البرق دون إرادة وهكذا على طول الخط فتربك محدثها ومن ينظر لها نتيجة هذه الحركة الديناميكية المرضية التي لا تسيطر عليها المسكينة التي نسيت متى ولدت لكنها تعرف ومتأكدة بأنها ولدت في الأهواز الواقعة جنوب إيران ثم انتقلت أسرتها فيما بعد وهي صغيرة إلى البصرة أولاً ثم مدينة خانقين واستقر بهم المطاف في بغداد عاصمة الرشيد حسب قولها وهي تتلفظ الكلمات بصعوبة وتنطقها بشكل مضحك بسبب فقدان معظم أسنانها... لكن والحقيقة تقال كانت قاصة من النوع الفريد العجيب، إذ بمرور الوقت وبعد أن تم للعائلتين الاستقرار النسبي - وهذا ما سنعرج إليه لاحقًا - حكت لهم حكايات رائعة تأسر القلب جعلتهم في نشوة دائمة كالسكارى وهم يترنمون بذكر الحبيب طربًا... نلفت الانتباه إلى أنها لم تقل ما اسمها بل أصرت بأنها تدعى أم فاطمة، وهكذا رفضت أن تقول أو تنوه عن

اسمها فرضخ الأصحاب لرغبتها وباتوا لا ينادونها إلا بأم فاطمة فتضحك مكركره مكشرة عن فكين فارغين من العظام لا يتوسطهما إلا اللسان.

كانت فاطمة ابنتها الكبيرة التي تجاوزت سنتها الثالثة من عقدها الثالث والتي تكبر أختها ياسمين بثلاث عشرة سنة ؛ طويلة ، ضخمة الجثة ، قليلة الكلام كثيرة الوجوم والأحلام ، تسمع ولا تتدخل أو تتحدث إلا ما شذ وندر ، تتمتع بابتسامة وادعة جميلة وعندما تضحك تظهر أسنانها البيضاء كلها بوضوح تام، مازالت عذراء لم تتزوج وهذا ربما ما جعلها تتأمل وتسرح في أفكارها بعيدًا عن كل ما يدور حولها لتعيش واقعها بحزن مجروح بعد أن رضت بقسمتها ونصيبها في الحياة... في حين كانت أختها ياسمين تختلف عنها مائة وثمانين درجة، فقد كانت قليلة الفطنة محرومة من الذكاء، مرحة فرحة مبتهجة أبدًا، سمينة بيضاء لا تهتم لشيء، لعوب تحب المغامرة والمقامرة دون أن تحسب لأفعالها أي حساب في نهاية سنتها العشرين وتشبه أختها من حيث عزوبيتها فقط، وما أن رأت كمال بقربها حتى خفق له قلبها واعتبرته حبيبها الموعود الذي نزل عليها من السماء بقدرة القدر ، خاصة وأن وسامة كمال تضرب بها الأمثال ، كان شابًا جميلاً بحق ، لون عينيه الزرقاوين يجلب الانتباه ويجعل الفتيات يركضن وراءه يطلبن وصاله، وياسمين لم تفعل غير ذلك، انكبت على وجهها ما أن رأته تحب أن تسمع ولو كلمة ينطق بها لسانه.

بعد أن تم تعارفهم رجعت إلى وجوههم ابتسامتهم وإلى قلوبهم طمأنينتهم وكأن في لقائهم سر سعادتهم، حتى وقفت فوق رؤوسهم بغتة امرأة رفيعة نشطة تمسك في يدها مجموعة من الأوراق وبجانبها وقف شاب طويل ذو ظهر مقوس تتدلى من على صدره كاميرا من نوع "كانون"، وقبل أن يهم بالتقاط بعض الصور لهم سألهم إن كانوا يمانعون، والمسئولة ذات الثوب الأسود الفضفاض الخفيف الذي يهرب منه الخيال كانت أيضًا حاضرة، فجاءه الجواب بالنفي فامتنع عن التصوير ورضخ، حتى فاجأته ياسمين بموافقتها غير المشروطة وهي تقول له:

- أنا جاهزة، يمكنك تصويري... وهمَّتْ مضيفة: لكن، لم تقل لنا، أين ستنشر الصور؟

امتعضت العجوز من تصرف ابنتها المتسرع غير الواعي وحاولت نهرها، فمنعتها ابنتها الكبيرة فاطمة بقولها:

- اتركيها وشأنها يا أمي، هي ناضجة ومسئولة عن قراراتها.

وهكذا بدأ الصحفي بعمله بجانبهم وياسمين تبتسم وتغير وقفتها وتأتي بحركات متجددة في كل لحظة ترفع خصلات شعرها مرة يمينًا ومرة يسارًا، في حين انشغلت المرأة الألمانية التي وضَّحت الأمر لهم ببساطة شديدة على أنها من منظمة "الكاريتاس" التي تساعد اللاجئين مجانًا وهذا هو عملها ولا تتفضل عليهم، طالبة منهم عد أغراضهم وضبها للرحيل إلى مكان أكثر إنسانية من هذا الذي لا يمكن أن يكون صالحًا للسكن الآدمي خاصة للعائلات.

وما أن أتمَّت كلامها تقدم منها آدم خطوة يسألها النصح:
- معذرةً، أحب أن أعرف رأيك في وضعنا... سكت محرجًا لبرهة ثم عاود الحديث بصعوبة، هو في حالة لا يحسد عليها، داخله ينزف لوعة لا يعرف كيف يتصرف إزاء موقف كهذا، تم فرزهم في مكان لا يمكن المبيت فيه، لا يصلح للسكن الآدمي كما نوهت تمامًا الموظفة في المنظمة الإنسانية، نظر لها بعينين محزونتين متكدرتين، تابع: أعني، مشكلتنا في الحقيقة نفس مشكلتهم، فرزنا للتو إلى هذا المكان وكما تشاهدين، لا يمكننا السكن بداخله.

بصوت رحيم هادئ قالت:
- أعتذر منكم كثيرًا. لا أستطيع مساعدتكم، مهمتي تنتهي بنقل هذه الأسرة إلى المكان الجديد ولا أملك من الصلاحيات لعمل الكثير.

شعرت في هذه اللحظة بأنها خيَّبت أمله، حاولت جاهدة أن تقلل من قولها ولم تفلح:
- أقصد، سأنقل هذا إلى مدير المنظمة التي أعمل فيها وأشرح له ظروفكم، وهو من يقرر كيف ومتى وأين... حسب علمي بأن سرعتنا في الحركة لإنقاذ هذه الأسرة كانت بسبب هذه المرأة العجوز ووضعها الصحي الذي لا يساعدها على البقاء هنا لساعات أخرى، ومع ذلك أجد ربما أمل في إيجاد محل آخر لكم رغم صعوبة هذا الإجراء، حيث وكما تعلم مواردنا قليلة وهي التي تحكمنا في تقديم مساعدات عاجلة أو أكثر فاعلية لمن يستحقها بالفعل ويحتاجها، أتمنى أن تتفهم وضعنا...

بهذه الكلمة ختمت كلامها وهي تحاول أن تساعد العجوز على النهوض بعد أن جمعت فاطمة ابنتها في تلك اللحظة كل أغراضهن تهيئةً لرحيلهن.

• • • •

بعد أن سجلت أنهر عنوانهم الجديد الذي أخذته من المرأة التي تعمل في المنظمة الإنسانية تم توديعهم ووعدهم بلقائهم في أقرب فرصة ممكنة بعد أن تستقر أمورهم، لكن ياسمين لم تدع الفرصة تفوتها، اقتربت من كمال بجرأة وأسقطت في أذنه كلمات لم تجعل الآخرين ومن كان بقربها يسمعها:

- أحب أن أراك اليوم عصرًا، تعال حيث عنواننا الجديد، سأكون في انتظارك.

قالت له ذلك وهي تقرّب فمها من أذنه حد الالتصاق كأنها ترغب متعطشة للثمها... شعر بنفسها الحار الملتهب الصاعد من صدرها الذي يفور رغبة في داخلها، تقهقر أمامها، كمال لا يستطيع ولا يعرف كيف يصمد أمام هكذا مغريات أنثوية، بل هو من يسعى إليها ويحاول اصطيادها أينما تكون، وما علاقته الجديدة الأخيرة بتلك الفتاة الألمانية نادين التي تعرّف عليها على شاطئ بحيرة "شتان بيرك" بصحبة المترجم يوسف اللبناني إلا دليل على ما نذهب إليه في تفسير وتحليل شخصية وطبع كمال تجاه المرأة التي يلتقي بها عرضًا وبالصدفة... طقطقت ركبتاه، لم يعد يشعر بأن له

مفاصل تسنده، تمايل في وقفته، ترنح كالسكران، منظره كان يثير الشفقة ويبعث على الرحمة ، دمدم بصوت متهدج مضطرب بخضوع واستسلام، مجيبًا:

- سأكون عندكم في تمام السادسة مساءً ، أهلك يحتاجون رجلاً اليوم يقف معهم ويساعدهم، ينظم لهم حياتهم، رجل يسعى لتلبية رغباتكم ومتطلباتكم ، نحن عراقيون جميعنا ، يجب أن نقف مع بعض ويساعد أحدنا الآخر ، قولي لهم هذا فيما لو سؤلتِ، تفهمين ما أعني أليس كذلك؟! ربما تشجعنا ظروفكم وأسكن عندكم!... قال ذلك وهو يغمزها بشهوة مفضوحة.

ياسمين طارت من الفرح ، ابتهجت ، قلبها كان يخفق بسرعة ، ضرباته تسمع عن بُعد، قالت مرتجفة الشفة بعد أن أحمرت عينيها بسرعة كأنها تمر بحالة من الشبق لا مجال لتجاهله مثمنة ملاحظته وتؤكد عليها:

- سيكون، وحياتك الغالية عليَّ سيكون، أنت تأمر يا نظر عيني، يا مستقبلي الموعود... ثم رنت ضحكتها المتعثرة بالحشرجة في المكان بعد أن اختلطت بالشهوة المنفلتة.

(١٠)

يُقال: لا جدال في الآراء ، وبحجة الخوف نرتكب المعاصي

الحظ وقف في ذلك النهار مع القدر ضدهم... رجوعهم إلى مركز اللجوء دون أن يستلموا أسرّتهم بعد أن رفضوا توقيع أي ورقة هناك ؛ جعل مسئول الفرز يغضب بشكل غير عادي ويتوتر إلى حدود لم يكن أحد منهم توقعها إلى هذا الحد ، فقد ظل يزبد ويرعد وهو يزرهم بنظرات شزراء وقحة متحدية:

- كان هذا أمر إداري لا مفر منه ؛ المسألة ليست مسألة مزاج ، ليس هناك أي حق للرفض أو الاختيار.

وهكذا كان الأحمر الطويل ذو الشعر القصير يصيح بهم دون فكاك ، ثم فجأة أخذ أوراق فرزهم من بين يدي أنهر وكتب عليها شيئًا لم يتبين لهم ماذا كان ، والمترجم فرياد كان وقتها حاضرًا للترجمة استشاط غضبًا من معاملة الموظف الألماني الذي وجده بعيد كل البعد عن الإنسانية التي تتبناها دولته وتصرح بها كل لحظة على الملأ دون أن تطبق حرفًا منها... وبعد أن أنهى ما سجله مدَّ لأنهر الأوراق مجددًا بلهجة مستفزة آمرة:

- سمعت منكم تذمركم ، لكن هذا لا يكفي سببًا للرفض ، وعليه ؛ عليكم إما الرجوع إلى المكان الذي تم فرزكم إليه أو إلى بلدكم

ومن أين أتيتم... ثم تابع مستخلصًا بذات الرنة المستهجنة: لن تبيتوا بعد اليوم هنا، لا يحق لكم ذلك.
فار دم فرياد، غلى دمه في عروقه، سبَّ المستشار الألماني "هـ. ك." باللغة العربية، ولم يكتفِ، أضاف شاتمًا الرئيس الأمريكي "ج. ب. والكايزر العراقي" قال لحظتها كلامًا لا يحق لنا تدوينه هنا، مقزز وفيه الكثير من الفجور... ساعتها لم يعد فرياد الذي عرفوه، أصبح فجأة شخصًا آخر، الجماعة لا يعرفون بماذا تفوه الألماني حتى جعل المترجم الكردي يفقد أعصابه إلى هذه الدرجة، كان حانقًا بشكل مخيف، بدنه كله يهتز، يرتعش، لم يعد بإمكانه السيطرة على نفسه... هو لم يترجم كل ما قاله الموظف، خشي أن يتوسع الموضوع حد الصدام، نوه لآدم راجيًا بأن يخرجوا من الغرفة، وهو مازال محتقنًا بعد أن تغيرت سحنته، أصبحت فحمية بسرعة رهيبة متوسلاً بأنه سيشرح لهم الأمر في الخارج بهدوء، ثم صفق الباب من خلفه بقوة حتى كاد يحطمه...

وما أن شرح لهم فرياد الأمر حتى انهارت أنهر باكية والكلمات تتدحرج من فمها بصعوبة:
- كيف يعني؟ إنه بالتأكيد يمزح، أليس كذلك؟ وهي تزر المترجم بنظرة حارقة، تابعت متخبطة بالكلمات التي خرجت كيفما أتفق على غير نسق: أظنك تريد أن تجس وقع الحدث علينا لو حصل، لكنه غير صحيح... قل، لماذا أنت ساكت؟

ظلت تهذي كالمحمومة حتى حضنها زوجها محاولاً إسكاتها بطريقة رقيقة كيلا يزيد عذابها، في حين كان كمال يقابل كل ذلك ببرود شيطاني عجيب لأن له حسابات وخطط تحقق له ما يريد بسرعة فائقة بانتظار الساعة السادسة مساءً عندما يزور العائلة العراقية المرتبط مع ابنتهم ياسمين بموعد بعد أن تأكد من أنه لن يخرج من المعادلة خال الوفاق وبأنه سيسكن عندهم شاءوا أم أبوا وبهذا يكون هو في منأى وغير معني بما يحصل لأخته وزوجها آدم.

• • • •

انتصف النهار ولم يحدث شيء؛ الوجوم كان سيد الموقف وهو الذي يحوم فوقهم، جلس الثلاثة وبعيدًا عنهم كان كمال يقف مستندًا على حائط قريب من غرفة الموظف الأحمر الذي أمرهم بالرجوع من أين أتوا وهو يرنو إلى الفتيات اللاتي يمرن أمامه لا يعبأ بما يحصل من حوله ببرود أعصاب غير طبيعي، والثلاثة يفكرون لعلهم من مأزقهم يخرجون، ولم يُوفقوا إلى حل.

بعد فترة غير قصيرة من التأمل عرض عليهم المترجم فكرة استضافتهم في مسكنه؛ الفكرة لم ترق لأنهر وزوجها، حيث أن فرياد نفسه كان يسكن في مكان خاص اللاجئين ولا يملك غير سرير واحد في غرفة مشتركة مع شاب صيني والغرفة بحد ذاتها تشبه جحر الفئران، صغيرة مظلمة لا يصلها ضوء الشمس، قذرة

والحمامات كانت مشتركة لكل سكان البناية التي تتكون من خمسة طوابق خاصة للأجانب الذين يعانون من مشاكل سياسية أو إنسانية على شاكلة فرياد الذي هرب من السليمانية قبل أكثر من عشر سنوات بعد أن هُدِّد بالقتل من جماعة الكايزر وبعد محاولة اغتيال واضحة أدت إلى حروق في وجهه وتشويه بشرته، فقدم اللجوء في ألمانيا طالبًا حمايتهم، قُبل لجوئه واشتغل بالترجمة التي يجيدها بإمكانيات متواضعة في كل من اللغات الإيرانية، العربية، الألمانية، الإنجليزية ولغة الأم الكردية.

انتهى الأمر بهم بأن يبقوا في مركز اللجوء بطريقة أو بأخرى حتى يتسنى لهم إيجاد حل ربما ينقذهم مما هم فيهم، وانسحب المترجم مغادرًا إلى عمله، وكذلك فعل كمال دون أن ينوه عن خط سيره راجيًا بأن لا يقلقا عليه لأنه سيكون بخير وسيعرف كيف يتصل بهما ويراهما وقت الضرورة، ثم تركهما في همهما بانتظار رحمة الله.

أنهر لم تعارض ولم تنبس بكلمة واحدة؛ كانت نظراتها لأخيها حارقة، مرعبة لا تحتاج إلى لغة كي تُترجم، هو فهم ما كانت ترنو إليه أخته، لكن رغبته في لقاء ياسمين هي التي غلبت وسيطرت على كل حواسه ومشاعره، كمال لم يتغير وربما لن يتغير، الفتاة في عرفه إلهة، هي من يجب أن تُعبد ولها يُسجد... آدم ظلَّ متحرجًا من موقفه، لا يحب أن يتدخل في شؤون غيره الخاصة حتى لو كان نسيبه، فلاذ بالصمت وبه احتمى.

عند المساء قررا أن يذهبا إلى عائلة آزار التركي الذي يعمل آدم معه عند ألبرت، كانت العائلة تسكن في الطابق الرابع من مركز اللجوء، لم تفرز بعد، أغراضهم موضوعة في أكياس بلاستيكية زرقاء شفافة مستعملة بانتظار قرار ترحيلهم في أي لحظة... صعدا إليهم منكسري الخاطر، همهم آدم بعد أن فتحت لهما الباب زوجة آزار السمينة صاحبة اللسان الطويل والقلب الطيب، رحبت بهما دون أن تسألهما عن سبب زيارتهما المفاجئة، كان زوجها رقدًا على السرير بلباس النوم، هبَّ مسرعًا من على السرير مرحبًا بضيوفه... آزار شخصية رائعة، ذاع صيتها في مركز اللجوء لما لها من جاذبية وطيبة ونكران ذات وحب للناس أجمعين. نادى زوجته بصوتٍ عالٍ:

- حضري العشاء لنا.

صدحت زوجته بلسان مقلق، ولولا لسانها لكانت قديسة:

- سأعمل أكلة تركية لم يتذوقوها من قبل، سأطبخ البرغل مع الطماطم وأجعلها على شكل حلقات دائرية صغيرة يأكلون أصابعهم وراءها... ناحت مستدركة: أنا بنت جار الله والكل يعرف طبخي ومن يجربه يرغب بالمزيد، يعود لي، يركع أمامي يطلب مني أن أعلمه الوصفة السحرية، ها... ما رأيكم؟

- حسنًا، حسنًا... قال ذلك آزار وأردف: سأجهز أنا السماور لنشرب الشاي بعدها، ستكون ليلتنا ملحية بصحبة الأحباب.

رحب بالقادمين ضاحكًا على طريقته الشرقية التركية المحبوبة المضيافة الشهمة مشمرًا عن ساعديه كأنه ينوي ذبح كبش العيد لا يعرف ماذا يفعل وهو في كل ذلك صادقًا حد الإيمان... هرعت التركية إلى المطبخ متدحرجة بمشيتها بعد أن أخذت معها كل ما وسعت أيديها حمله من مؤن وقدور ورفضت رفضًا قاطعًا وأقسمت بأن لا تجعل أنهر تساعدها وهي من ستقوم بتحضير وإعداد العشاء بمفردها لأنها تعتبر ذلك شيمة من شيم الشرق الأصيلة.

سهروا حتى ساعة متأخرة من الليل... ثم غرقوا في النوم.

تلك كانت ليلتهما الأولى التي باتا فيها دون أوراق رسمية أو إذن من السلطات المحلية تسمح لهما بالبقاء والمبيت في مركز اللجوء وتحمل آزار المسؤولية، كان رأي زوجته من رأيه بعد أن زعقت بصوت جهوري وهي تدق صدرها بيدها بقوة كأنثى الغورلا:

- ومن هذا الذي يستطيع أن يقتحم علينا غرفتنا وأنا موجودة؟!.

• • • •

من الطرف الجنوبي من مدينة ميونخ وبالتحديد في منطقة تُسمى "كَيزينك" تلك التي لا يسكنها غير الأتراك وقلة قليلة من الألمان أصحاب البلد لقربها من مركز اللجوء العام من جهة، ولوساختها وقِدم وتهالك أبنيتها وزحمة السير في شوارعها من جهة أخرى، مما أدَّى كل ذلك إلى نزوح الألمان عنها، ومن بقي فيها فهم من

فقراء وسواد الناس الذين لا يملكون من أمرهم شيئًا وغالبًا ما يعيش هؤلاء على ما تمنحه لهم دائرة المساعدات والرعاية الاجتماعية من تأمين صحي وحياتي ، في حين زُرع في وسط المنطقة ملعب لكرة القدم شبه متروك غادره نادي "بايرن ميونخ" منذ زمن ليس بالقصير بعد أن بنى ملعبه الجديد في الأولمبياد فظهر الملعب القديم وكأنه أثر من الآثار يزوره الزوار لا يستعمل إلا لنوادي الدرجة الثانية والثالثة...

هناك، في تلك المنطقة الفقيرة المنزوية كأنها عالم مريض معزول بحكم القانون تم فرز العائلة العراقية التي يزورها كمال في هذا الوقت من المساء بالتحديد كما اتفق مع ابنتهم بالضبط وهو يسعى لهم بسرعة محملاً بأفكار ونزعات ورغبات لا تنتهي ولا تخلص.

بيت قديم لا يُعرف من النظرة الأولى لون طلائه ، يتكون من طابق واحد كبير يجلس على تله غير مرتفعة عن سطح الأرض إلا بأمتار قليلة يسعى المرء لارتقائها ودخول البيت بعد أن يتجاوز بسيره خطًا ترابيًا مائلاً يندفع صعودًا وعلى جانبيه حشيش بري ودغل غير معتنى به؛ اشتركت فيه عائلتان، الأولى من يوغسلافيا قبل التفكيك والعائلة العراقية التي نحن بصدد الحديث عنها، يفصل بين سكنهما ممر ضيق باتجاهين، الأيسر كان يؤدي إلى غرفتين: الأولى استحلتها العجوز أم فاطمة ، والثانية استعمرتها فاطمة وأختها ياسمين ، في حين اشتركت العائلتان في مرافق السكن الأخرى من مطبخ وحمام لا تسر الناظر نتيجة الروائح الصادرة

منهما والوساخة المتعلقة على الجدران والأرضية... وفي نفس الاتجاه المؤدي ليمين البيت أقامت العائلة اليوغسلافية التي لا ينقطع ضجيجها وصراخها حتى في وقت متأخر من الليل ثم يخلدون للنوم الذي لا يصحون منه إلا في ساعات متأخرة من النهار وهكذا دواليك تعيش تلك الأسرة القادمة من أوروبا الشرقية التي لا يعرف المرء وقتها لماذا هم هنا تاركين بلدهم ليعيشوا تلك الحياة الغريبة أغراب أجانب أشقياء تافهون ومعدمون يستجدون قطعة الخبز؟...

دخل كمال منشرح النفس لا يلوي على شيء وكأنه يزور أهله بأريحية وبهجة غير مسبوقة في طبعه، فتحت له ياسمين الباب وهي تترنح في وقفتها كأنها ترقص، قالت ضاحكة مماحكة:
- تفضل البيت بيتك...
ثم نادت لأمها بأن كمال قد وصل...

ما خطط له حصل... قبلت العجوز أن يسكن معهم دون رخصة بعد أن تعاهدوا على أن لا يتم إبلاغ السلطات المحلية عما اتفقا عليه... بشرط؛ صاحت ابنتهم الكبيرة فاطمة نابصة:
- عندما يحضر أخي الكبير المتغرب قبلنا منذ ربع قرن تزوغ وتتخفى حتى يخرج ثم تعود إلينا... أضافت: لا نريد مشاكل معه من أي نوع، على الرغم من أنه يعيش حياته دون أن يسأل عنا وحتى هذه اللحظة، هو لا يعرف عنا شيئًا ، لكن يبقى الحذر واجب وها أنا أقول لك بكل صراحة وعلانية، ليس لدينا مانع من أن تسكن معنا إذا وافقت على شرطنا!.

أكدت العجوز على كلام ابنتها وأثنت عليه... في حين لم تتدخل ياسمين، فضلت الصمت كيلا يفتضح أمرها...

بلا تردد ناح كمال:

- موافق... وهو يغمز ياسمين بشهوة...

أخذ كمال راحته تمامًا وكأنه في بيته، هيأوا مكان نومه بعد أن اتفقوا بأن تكون الغرفة الصغيرة له وحده ويعيش بقية أفراد الأسرة في الغرفة الأخرى، ولا يعلم أحد كيف وافقوا على فكرته وعرضه الغريب، ولماذا أصلاً قبلوا بهذا الواقع الذي يعتبر فرضًا أو حكمًا من السماء لا إرادة لهم على رده أو صده؟، اللهم إن كانت النوايا للجميع متشابهة ومتفق عليها دون أن يتم طرحها أو سردها أو حتى يحتاجون لمناقشتها، والعلم عند الله وحده!

هيأت ياسمين لهم عشاءً سريعًا بمساعدة الفحل كمال الذي لم يفارقها لحظة، تبعها أينما ذهبت، وفي المطبخ المشترك وهما يهيئان العشاء؛ أمسك يدها بسرعة فائقة كيلا يجعلها تفكر أو تتراجع ولثمها بإصرار يفوق ما موجود عند كل الرجال حتى كاد يفقد توازنه وهو ما أنفك من تقبيلها وفركها ثم تقريبها من صدره فيعود مجددًا للثمها وهو يقترب منها حد التلاصق... تفاجئ عندما شعر بياسمين تتجاوب معه وتعطيه أكثر مما كان يتوقعه؛ هي لم تسحب يدها ولم تحاول الابتعاد عنه عندما أراد حضنها فغرقا معًا في قبلة ساخنة مات فيها الوجد الإنساني وأحيا لحظتها بدلاً عنه شهوة حيوانية لا تقاوم، حتى وعت على نفسها عندما سمعت دبيب

أحدهم يقترب من المطبخ فابتعدت عنه وظهرت وكأنها تعمل لإعداد الطعام وجثة كمال بوقفته غير البعيدة عنها ترتعش، من أخمص قدمه حتى هامة رأسه.

بعد العشاء شربوا الشاي واستمعوا إلى الأخبار عبر الراديو الذي أحضرته معها العجوز ولم تتخلى عنه، كان من نوع "كَروندك" يعمل بعد أن يسخن، يحتاج إلى دقائق ثم يرن بصوت كأنه صادر من دُفٍّ مثقوب، وجَّه كمال موجة الراديو على إذاعة "مونت كارلو" التي قال عنها بتجربة خائبة غير صحيحة إنها الإذاعة الوحيدة في العالم التي تعتبر محايدة ولا تقول إلا الحقيقة!... كان جازمًا حاسمًا في قسمه مما أدى إلى رضوخ العجوز لرأيه التي كانت مدمنة على سماع صوت الراديو وهو يبث أخباره عن بلدها من واشنطن!... استمعوا إلى البيان الذي أدلى وقتها والذي تم فيه تحديد الخامس عشر من يناير عام ١٩٩١ لمثول الكايزر العراقي لقرارات الأمم المتحدة والانسحاب غير المشروط من دولة الكويت بعد أن تم إدانة العراق وفرض الحصار عليه، بعدها، غرق بلد الرافدين في حفرة عميقة كبيرة من الظلام ولم يخرج منه حتى الساعة.

• • • •

بعد أن انتهوا من فطورهم مع عائلة آزار والساعة كانت لم تتجاوز الثامنة والنصف بعد قرَّر آدم أن يزور مدير الهيئة

الإنسانية السيد يعقوب ويشرح له الموقف المتأزم بعد أن وافقته أنهر على فكرته وهي تردد بانكسار: نحن أصلاً لا حل لنا ولا نملك أي خيار آخر، وما علينا إلا أن نسعى ونجرب.

كان آدم يعرف بأن السيد يعقوب لا يحضر إلا عند العاشرة صباحًا فنزل مع زوجته ينتظراه أمام غرفته.. في تلك اللحظات وبالصدفة التي تحير العلماء من إيجاد تفسير لحدوثها وهي معلم من معالم الإثبات لوجود الله سبحانه وتعالى؛ مرَّت السيدة جون الكندية زوجة هنري اللذين يعملان في الشؤون الإنسانية فوجدت أنهر جالسة بقرب زوجها حزينة خافضة رأسها الصغير نحو الأرض مهمومة، فهدلت فرحة:

- مَنْ هنا؟ أنهر بنت الرافدين!

ثم انهالت عليها بقبلات حارة كثيرة وهي تحضنها بقوة سائلة إياها عن ظروفهم وأحوالهم...

ردت عليها أنهر منكمشة على نفسها شارحة لها ظرفهم الذي لا يسر، فندت عن السيدة الكندية ذات القلب الرقيق الطيب صرخة خفيفة عرفت كيف تسيطر عليها دون أن تدع صوتها يعلو وهي تضع راحة يدها اليمنى على فمها:

- آه... هذا أمر فظيع غير إنساني بالمرة لا يمكن السكوت عليه.

ثم حزمت أمرها بسرعة وهي المعروف عنها قوة شخصيتها وصلاحياتها وعلاقاتها الأخطبوطية مع كل من يعمل في مركز اللجوء، من أصغر موظف فيه إلى أكبرهم، قالت وهي تشير بيدها البيضاء المكرمش جلدها نحو آدم أيضًا موجهة الكلام لكليهما:

- تعالا معي وأنا سأتصرف... تابعت: لا داعي للانتظار هنا، هيا.
نظرت أنهر إلى زوجها غير مصدقة سمعها ، التقطت يد آدم بنشاط لا يعود لها وهمًّا يتبعانها بسرعة خاطفة والسيدة الكندية تسير أمامهما متدحرجة بحركاتها التي كانت تأتي بها فكانت تبدو للناظر وكأنها تركض يدفعها شعور إنساني عميق لمساعدة أنهر وزوجها.

دخلت جون زوجة هنري الكندي على الموظف الأحمر الذي فرزهم ومعها أنهر وآدم مواجهة إياه بحزم ونظراتها الحارقة التي تجدح شررًا لا تنزلها عنه كأنها تكلم صبيًا مذنبًا:
- اسمع، هل نسيت تاريخكم بهذه السرعة؟، أم أراك لم تطلع عليه بالمرة وقتما تشرد شعبكم إبان الحرب العالمية الثانية وخط سيره كان وأملهم الوحيد في النجاة الدول الإسكندنافية، ذهب شعبك إليها سائرًا على الأقدام قاطعًا آلاف الكيلومترات من غير أحذية، لأنه ما كان يملكها، هل تسمع ما أقول؟ عاري القدمين هاربًا من جحيم الحرب الذي أشعلها كايزركم برعونة لا تخفى على عاقل...

يا الله، كانت صلبة في وقفتها، راسخة في كلامها، ونظراتها لم تزغ عنه ، كانت تراقب كل حركة تصدر عنه كنظرات أفعى متوثبة تريد الدفاع عن نفسها من خطر محدق بها، نوهت بدقة:
- انظر ، لقد خدمت في الكنيسة لمدة لا تقل عن عشر سنوات وفي منظمات إنسانية عالمية كاليونيسيف وأخرها هنا ، وفي القريب سأتوجه إلى أفريقيا لذلك أقول: ما فعلته مع هؤلاء لا يمت للآدمية

بشيء ؛ وهي تشير بيدها نحو آدم وزوجته الواقفين بالقرب منها مأخوذين للهجة النارية التي كانت تطلقها جون وهي تدافع عنهما ببسالة قلَّ نظيرها ، والموظف الألماني الأحمر ينظر لها بذهول مصعوقًا بعد أن باغتته الكندية بأسلوبها البلاغي المتقن وحرارة حديثها وصدقه، فظلَّ الرجل مذعنًا لها لا يعرف كيف يسكتها ولا يجرؤ أن يرد عليها ، فظل طوال الوقت يسمع ، يومئ برأسه بإشارات بلهاء لا معنى لها، حتى أنهت جون خطبتها بقولها:

- والآن، ماذا تنوي أن تفعل؟!... ثم أردفت برنة متحدية لا تخفى على السامع: ما حدث أتمنى أن لا يحدث مجددًا لعائلات أخرى، وإلا سأجعل مستشاركم الألماني السمين يعرف بالفضيحة ومن قبله الصحافة متوسطة صورتك الجميلة الإعلانات التي سأنشرها!

بوهنٍ وهو يشعر بأن روحه ستخرج من فمه متراجعًا عن خططه:

- أنا لم أفعل ما فعلت إلا بحكم الضغط، يعني، اللاجئين الجدد كانوا أكثر مما يستوعبه مركزنا، وبما أن والحالة هذه توجب علينا فرز الموجودين إلى أي مكان لنستوعب أُناسًا جدد!

- لن أناقشك بهذه السياسة المتبعة لأنها ستجعلنا نخسر وقتنا دون طائل... تابعت بحسم: مازلت أنتظر النتائج!

- لم يبقَ عندي من خيار آخر غير سكن واحد، فقد رُتب قبل أيام لاستيعاب خمسين عائلة.

- أين وما هي مواصفاته؟

- الحقيقة، أقصد، لا يختلف عن المكان الذي رحّلتهم إليه كثيرًا إلا أنه فوق الأرض وليس تحتها!

صاحت دون شعور منها، رد فعلها هذا طبع لم يُعهد بها، لكن ما تسمعه وتراه أخرجها عن طورها:

- ماذا تقول؟

ببرود قابل صيحتها منوهًا:

- لا تنفعلي أرجوك، دعيني أشرح لك الموضوع بهدوء...

- تفضل... وهي تحاول جاهدة أن تسيطر على أعصابها التي حرقها لها الأحمر البارد في وقفته وسلوكه وأنهر تفور وتدور حول نفسها لا تفهم ما يجري كونهما يتحدثان الألمانية التي تجهلها فبقيت تتحسر لمعرفة ما يدور وآدم يمسك بيدها ليصبرها...

ناح الموظف:

- السكن عبارة عن "سوبر ماركت" أعني، هكذا كان وتم تحويله إلى قاعة للسكن تحتوي على أسرّة يبعد الواحد عن الأخرى مسافة مترين مراعاة للذوق وآدمية الإنسان!، والمرحاض في الخارج لا يبعد عن "السوبر ماركت"... توقف للحظة، شعر بأنه أخطأ في الوصف، قال متابعًا: معذرةً، أقصد، لا يبتعد عن القاعة سوى ثلاثة أمتار وعند الاستحمام يذهبون إلى المسابح القريبة مجانًا، يقوم على حراسة الموقع رجل ألماني أمين يدعى "باومان" لطيف جدًا وهو المسئول عن توزيع حصص المواد الغذائية المعلبة لهم، ها... ما قولكم؟... قال الجملة الأخيرة وهو يزر الجميع بنظرات ماكرة لا تسر ولا ترحم...

- صدقت، لم يتغير الوضع كثيرًا، بدلاً من تحت الأرض أصبح فوقها، هذا كل ما حصل؟

- صدقيني هذا أرحم... أضاف وكأنه ينوي تصوير البؤس بالكلمات: لا يوجد عندي خيار آخر لهم، أما العودة للمسلخ أو الذهاب إلى "السوبر ماركت"... ثم عضَّ شفتيه لتسرعه في إطلاق التسمية.

- على الرغم من أنك تعترف بأن المكان الذي سفرّتهم إليه لم يكن صالحًا للسكن والاستعمال الآدمي لكن الأمر والقرار الآن يعود لأنهر ولزوجها... ثم طفقت بعد أن خففت من لهجتها المتشددة ومن عصبيتها التي لم تعتد عليها: لحظة من فضلك، سأسألهما... اتجهت نحو آدم وزوجته، شرحت لهما ما سمعته من الموظف بروية وبكلمات إنجليزية بسيطة كي يكونا على علم بما سيقرران.

نبر آدم دون تفكير طويل:

- أنا موافق أن أذهب إلى المكان الذي قال عنه، لكنني أجهل عنوانه، هل له أن يقول لنا أين؟ هل هو داخل أم خارج المدينة؟... ثم بكلمات ممطوطة أضاف: يبقى هذا رأيي الشخصي...

نظرت له أنهر بطرف خفي حنين، شرعت:

- رأيي من رأي زوجي... أردفت: مهما سيكون فهو أرحم من المسلخ ووسط شلة من الشبان ومن مختلف الجنسيات...

- هما موافقان، على أن يعرفا أين المكان؟

- لا يبعد من هنا كثيرًا، في منطقة "أنسبروكرنك" أنت تعرفينها بالتأكيد، فهي في وسط المدينة... بعد وقفة: ليعلموا بأن هذا المكان مؤقت، سرعان ما سيرحّلون إلى جهة أخرى أكثر استقرارًا، وربما يحصلان على غرفة خاصة بهما في بناية كالتي نسكن نحن فيها... ثم ختم قوله: انصحهما بالصبر والتحمل قليلاً.

ترجمت لهما جون ما قاله الموظف... استلموا الأوراق منه، وقعا عليها... خرجا من عنده وهما يشعران بهمهما أصبح أقل ثقلاً... شكر آدم سيدة جون بحرارة، صافحها بقوة وحرارة صادقة لموقفها الإنساني الجميل، قبلتها أنهر وهي تحضنها، وقبل أن تودعهما ضربت لهما موعدًا في عطلة نهاية الأسبوع لاستضافتهما مع كمال في شقتها لتناول الغداء معًا... أخرجت من حقيبتها الصغيرة التي تُضحك لأنها خاصة للأطفال لكن جون كانت متعلقة بها جدًا ولا تتركها لحظة؛ قصاصة كارتونية صغيرة بيضاء معتنى بها وعليها عنوان شقتها وسلمتها لأنهر وهي تشعر بسعادة لا توصف لأنها قامت بعمل بطولي إنساني جعل من أنهر وزوجها يحسان بالأمان والسلام ولو لحدود طفيفة ضعيفة وهي تركز في قولها:
- الطابق العاشر، لا تنسيا ذلك، فهو غير مكتوب في البطاقة.

(١١)

كذب الإنسان على نفسه ثم صدق كذبته حين قال ، بأنه كتلة من المشاعر !الأجدر حتى نصدقه ويكون محل ثقة واحترام ، بأنه كتلة من المتناقضات البشعة التي يحاول من خلالها استغلال واستعمار غيره دون أن ينوه عن الحقيقة التي تقول بأن غالب أعماله سبب أنانيته وليس مشاعره !... الدليل : جرائمه التي يرتكبها والشرور التي يشعها.

بعد أن أخذا إذنًا من السيد الأفريقي ألبرت بالذهاب لاستلام أوراق إقامتهما في المكان الذي أشار إليه الموظف الأحمر ؛ وافق من غير أن يسمع كل الحكاية لأنه يعرف بأن ذلك من حقهما ولابد من الشروع به فورًا... واتجها للمكان بعد أن استعانا بخارطة للطريق زودهما بها ألبرت بنفسه ورسم لهما بالضبط أين يكون سكنهم في منطقة" أنسبروكرنك ".

كان كما وصفه الأحمر ، عبارة عن "سوبر ماركت" فُرغ من محتوياته وجُعل بحيث يستقبل اللاجئين للمبيت فيه ولا يتكون إلا من أسرّة لا غير ، وعند الطرف الخلفي للمكان توجد غرفة ترتفع عن سطح الأرض نصف متر كانت تستعمل مكتب لموظفي "السوبر ماركت" اتخذها السيد "باومان" مسئول المكان للرعاية

والاهتمام وتنظيم توزيع المواد الغذائية على الساكنين بالعدل ، تطل على الفسحة من خلال شباك زجاجي خاص مظلم يمكن للجالس في داخل الغرفة فقط أن يرى ما يحدث في القاعة.

كان المسئول رجلاً لطيفًا ، طيبًا ، بشوشًا ، سمينًا ، يتقدم رأسه صلعه لامعة ، غالبًا ما يرتدي ملابس غريبة زاهية الألوان كالملابس التي يتقلدها الملوك، يحب الفكاهة والمزاح ويقلد الكثير من الحيوانات بروح مرحة فرحة، يحب الأطفال كثيرًا ويحاول أن يعطيهم أكثر مما يعطي الكبار من المؤن ، وهذا ما لاحظه الساكنون وغضوا الطرف عنه.

صافحهما بحرارة وتعرف على آدم وأنهر ، استلم منهما أوراق اعتمادهما، عرف بأنهما من العراق فزاد اهتمامه بهما، أشار لهما بسريرين الواحد فوق الآخر مركونين في زاوية بعيدة وهو ينوه لهما ناصحًا:

ـ سأعطيكما شرشفًا طويلاً سميكًا تغلفان فيه السرير التحتاني من كل جانب ليكون كالجدران وتتركان الذي فوقه شاغرًا، وقتها لن يستطيع أحد رؤيتكما عندما تنامان... قال الكلمة الأخيرة وهو يغمزهما بمكر.

وبالفعل، عملت أنهر بجد، أخذت بالنصيحة وما أشار لهما "باو مان" ، أحاطت السرير بالشرشف بعد أن ثبتته من الأطراف بمساعدة زوجها، تم تغليف السرير بشكل رائع، لم يأخذ العمل منهما غير دقائق فأصبح السرير كسرير العرسان، استلما المؤن

الغذائية، ثم رجعا قافلين إلى مركز اللجوء حيث ينتظرهما عملهما ذو القيمة الفريدة، مارك واحد في الساعة!

• • • •

عند المساء قلقت أنهر على أخيها، شرحت لآدم مخاوفها من ترك كمال لوحده بهذا العمر أن يقرر بهذه السرعة أين يسكن وكيف سيعيش من غير تجربة تؤهله لفعل ذلك... حاول تهدئتها، قال:
- لا عليكِ، دعينا نزوره ونطمئن عليه، بعدها يكون لنا معه حديث أخوي خالص، وبالمرة نرى أم فاطمة ونقضي وقتًا طيبًا عندهم.

اتخذا من القطار الذي يتحرك على سكة نائمة في الشارع يسير على الكهرباء يتكون بالكثير من ثلاث مقطورات بطيء الحركة كثير التوقف حيث لا تبعد المحطة الواحدة عن أختها سوى أمتار قليلة لا تتجاوز المائتين، باتجاه بيت العائلة العراقية...

سألا في القطار عن المحطة التي ينزلان فيها بعد أن أشهرت أنهر أمام نفر من الناس الجالسين وفردت الورقة التي بحوزتها المكتوب فيها عنوان العائلة... أشاروا إليهما بالنزول في المحطة بعد القادمة...

صعدا التلة ، كان باب البيت مفتوحًا ، دخلا ببطء لا يعرفان بالضبط في أي اتجاه يسيران، سمعا أصواتًا تتحدث بالعربية قادمة من جهة اليسار ، عرجا مُسرعي الخُطى نحو الأصوات الهادرة التي كانت تُسمع بوضوح...

استقبلتهما أولاً ياسمين ضاحكة مرحة تتمايل في مشيتها كأنها ترقص رقصًا شرقيًا ، قبّلت أنهر بحرارة ، صافحت آدم بقوة وطلبت منهما الدخول ولسانها ما انفك يهلهل طالقًا كلمات الترحيب... دخلا على العجوز في غرفتها، وجداها مستلقية على سريرها، لم تكن نائمة، رفعت رأسها من على الوسادة ثم تنحنحت بصوت مسموع مبحوح فظهرت وكأنها تحاول أن تبصق، جلست القرفصاء على سريرها كالعادة ثم أشارت لهما بالتقرب لتقبيلهما.

فاطمة كانت ملتهية بشيء ما لم يعرفوا ماهيته، نهضت صوبهما، قبّلت أنهر مرتين ثم صافحت آدم برقة واتجهت إلى مكانها المفضل القريب من خزانة الملابس وانهمكت فيما كانت ملتهية فيه فغرقت بعدها في صمت عميق لم يسمع لها من صوت.

في هذا الوقت كان كمال في الحمام، وما أن حضر حتى رحب بأخته وزوجها ، سألهما عما حصل معهما بشأن الفرز ، أخبراه بأنهما الآن يقيمان في منطقة "أنسبروكرنك" داخل "سوبر ماركت" ، لم يتعاطف كثيرًا مع ما سمعه وكأنه لم يسمع، ثم غيَّر الموضوع بشكل تلقائي وطلب منهما أن يجلسا ليحتسيا الشاي معهم، وسألهما إن كانا يرغبان بلعب الورق أو "الدومينو" ، لكن آدم اقترح عليهم أولاً بأن يتسامروا لمزيد من التعارف بعدها يمكنهم اللعب كما يرغبون وهو سيفضل سماع الأخبار.

• • • •

الحقيقة التي تفقأ العين هي أن آدم كان مصدومًا جدًا بالواقع الذي يراه، هو لم يتوقعه أن يكون بهذا الشكل المأساوي المخيف؛ واقع مُرٌّ كدموع الفراق، بل أكثر حرقة ولوعة، ولهذا السبب قرَّر بعد أن أخذ رأي زوجته أن يفاتح السيدة جون وزوجها هنري لمساعداتهما للهجرة إلى كندا.

كان آدم وأنهر وقتها جادين جدًا في قرارهما وقد تم بالفعل مفاتحة العائلة الكندية برغبتهما عندما زاروهم في عطلة نهاية الأسبوع المتفق عليها مع كمال.

• • • •

داخوا، سألوا حتى بحت أصواتهم، طلعت أرواحهم من أنوفهم، صرعهم التعب وكلّت أقدامهم من السير قبل أن يعثروا على الشقة التي تقطنها العائلة الكندية. لم يتوقعوا أن تكون الشقة في هذا المكان الهائل في الفراغ، الغارق في الصمت، البعيد عن الناس، المحاط من كل صوب وحدب بأشجار باسقة، ضخمة منبسطة على أرض خضراء مزروعة بالحشيش المقصوص بعناية من وقت قصير ورائحة زكية عطرة تفوح من أماكن لا يعلم من سرها أحد غير الله وكأنهم في الجنة... قرأوا اللائحة على يسار الباب الرئيسي للبناية ذات الأحد عشر طابقًا محاولة منهم إيجاد اسم العائلة لكي يضغطوا على زر جرس الباب بغية فتحه، أسماء غريبة عجيبة كثيرة يعجز الشيطان عن عدها، تاهوا في مجرات

كونية ولم يعثروا على اسم جون ولا على اسم زوجها هنري... وأول من فقد صبره كمال، عاط بلا شعور ينوي العودة، قال:
- لا أريد زيارة أحد، هما يتحدثان الإنجليزية وأنا لا أفهمها، فما فائدة وجودي وسطكم؟!

أنهر لم يخفى عليها تذمر أخيها، هو يتعذر لأنه لا يريد مفارقة ياسمين، تعرفه جيدًا، سوف يمضي معها شوطًا من الحب والغراميات ثم يطلب يدها... الحقيقة كان تخوف أنهر ليس من ياسمين بقدر تخوفها من نادين الألمانية التي تعرَّف عليها كمال عندما كانوا على شاطئ بحيرة "شتان بيرك" الأسبوع الفائت، هي تشعر بأن أخاها سيكون له حظ ونصيب وتعلق وربما يقترن بالأخيرة بسرعة وينجذب لها أكثر من ياسمين، لكنها لم تفهم لحد اللحظة التي ينوي الرجوع لوحده تاركًا إياهما لزيارة العائلة الكندية بمفردهما والاختفاء سريعًا عن أنظارهما والعودة لياسمين لشوقه إليها أمر استغربته كثيرًا وجعلها تفكر مأخوذة بلُبٍّ طائش على النتائج التي ستترتب عليها لو قرَّر الارتباط بها رسميًا وهي على غير دينه!، لذلك ترجته بطريقة ودية:
- انتظر قليلاً، آدم سيجد الاسم سريعًا ثم نصعد لهما، أنا متأكدة ستروق لك الجلسة، سنسعد معهما، لا تتذمر هكذا، لقد وعدناهما بالحضور ثلاثتنا وعلينا أن نفي بوعدنا، لا أحد ينتظرنا في هذا العالم الآن غيرهما... قالت ذلك عن عمد وقصد، تقصد هنا ياسمين دون أن تنوه عنها بالاسم.

قطع صوت آدم خيط أفكارها، صاح:

- وجدت الاسم... في الدور العاشر، الشقة تتوسط الطابق، سأقرع الجرس.

ضغط زر الجرس دون تباطؤ... فتحت لهم الباب بسرعة البرق.

كانت الأجواء حميمية لم يتوقعها كمال بأن تكون هكذا أبدًا مثل مفاجأتهم بوجود المترجم الكردي فرياد في الشقة وحضوره قبلهم بطلب من هنري شخصيًا، كان فرياد صديق العائلة الكندية دون أن يعرفوا ذلك؛ على أيدهم تعلم اللغة الإنجليزية التي كان يجهلها جهلاً مطبقًا. في بداية تعارفه اشتغل مع هنري لنقل الحاجات التي تهبها العائلات الألمانية للاجئين مجانًا، ثم بعدها نصحه بالعمل مترجمًا لإجادته العربية والإيرانية والكردية بالإضافة إلى الألمانية ثم الإنجليزية التي تدرب عليها أثناء عمله مع الرجل.

السيد هنري رجل أشيب أبيض لطيف مرح يحب النكتة ويسهّل على الآخرين لغته الإنجليزية وذلك باستعماله كلمات مألوفة، مما جعل كمال يتحدث معه بطريقة أو بأخرى وكأنه يعرف الإنجليزية ويجيد استعمالها، لذلك كان اندماج الأخير غير متوقع الحدوث، بل لم يكن يرغب بالخروج منهم بسهولة، أراد أن يبقى فترة أطول نسى نفسه وياسمين والعالم من حوله... كان هنري رجل يجيد ويدير جلسات السمر بشكل رائع، هذا ما وقف عنده آدم كذلك، الأخير أخذ راحته على الأخر وبدأ يتحدث مع جون وزوجها في أمور شائكة كثيرة، لم يفته شيئًا لم يتطرق إليه، كان الدين حاضرًا

مثل السياسة ، ثم عرج بمساعدة أنهر على طرح فكرتهم في الهجرة إلى كندا... استمعت جون إليهم جيدًا ، ثم أعطت رأيها الصريح بالرفض وعدم القبول وذلك من أجلهم ومن مصلحتهم ، قالت:

- الحياة في أوروبا وبالتحديد ألمانيا أفضل بكثير من حياة كندا ، ناهيك عن الثلج والبرد ، الرزق هناك غير وفير يتطلب منكم جهودًا استثنائية لا أعتقد بأنكم قادرون عليها ، الحياة هنا أسهل ، أنعم ، أكرم وأفضل ، المستقبل سيبرهن لكم ما ذهبت إليه وما أردت التنويه عنه.

زوجها أثنى على كلامها، بهدوء يتصف بالرزانة، قال:

- نعم، ما ذكرته زوجتي صحيح مائة بالمائة، لقد كنا نعمل هناك ولم يكفنا راتبانا وما نتقاضاه معًا، كنا دائمًا قي حاجة وعوز ونحن كنديان، فما بالكم وأنتم أغراب عن البلد؟!

لعبوا الدومينو والورق ولعبة إيطالية جديدة على أصحابنا اسمها "أونو" أعجبت آدم كثيرًا ، ولعبة الذاكرة، وغيرها من اللعب التي تفننت العائلة الكندية في استعمالها وحضورها وتسجيل أحسن النتائج من خلالها.

جلسوا في الشرفة يأكلون الحلويات بعد وجبة الغداء الفاخرة التي حضرتها الكندية بذوق رائع يذكر بالطيبة، هناك ومن على الشرفة نظروا للعالم بمنظار آخر ، كانت مدينة ميونخ كلها تنظر لهم، من ذلك العلو الشائق، من الطابق العاشر ، والفراغ الممتد حولهم حد

الأفق جعلهم يسحرون ، يترنمون نشوى ، يتحسرون على أيامهم يوم كانوا في بغداد وسط الأهل والأصحاب.

عند المساء غادروهما مسجلين لهم أسمى آيات الشكر لما قدماه من كرم وحسن الضيافة... نزلوا من هناك مترجلين باتجاه بيت العائلة العراقية بعد أن دعاهما كمال للمجيء معه لقضاء بعض الوقت وهم يجترون تلك اللحظات السعيدة الجميلة النظيفة، يتمسكون بها، لا يريدونها أن تتبخر من مخيلتهم لجمالها وروعتها.

(١٢)

الخوف كالموت واحد متعدد الأسباب

لا يمكن اعتبار الحياة في "السوبر ماركت" طبيعية، لا يجوز لنا أن نصفها ولو بشيء يسير من الطبيعية، لأننا لو فعلنا ذلك سنجني على أبطال روايتنا ونقترف ذنبًا نحاسب عليه يوم الحساب!

كان فريق الغجر يسرحون ويمرحون في القاعة، يساعدهم جماعة لا يعرف أحد فصلها أو أصلها تتحدث لغة غريبة لم يسمع أحدٌ من قبل بها، وربما كانت اللغة المغولية شبه المنقرضة، كانت ثياب تلك الملة غريبة مثل لغتهم كثياب الرُعاة، لهم وجوه دائرية وشعر رؤوسهم طويل، ولا يكرهون في حياتهم أكثر من الاختلاط بالآخرين، فظلّوا طوال الوقت منعزلين لكن ضوضاءهم كانت ترمز لوجودهم وحتى ضحكاتهم كانت ترن في الصالة كزعيق الصبية المشاكسين أثناء اللعب والعراك.

تعرّف آدم بالصدفة على رجل من سوريا يعيش معهم في "السوبر ماركت" كان دائم الوحدة وغالبًا ما كان نائمًا، أو يقرأ؛ أثار فضول آدم فاقترب منه يومًا سائلاً عن ظروفه وشخصه، أجابه الرجل بأنه محامٍ من سوريا يُدعى "عدنان" بصحبة زوجته التي هي الآن في المستشفى تعاني من مرض خطير قد يؤدي بحياتها،

هذا ما عرفه آدم بكلمات مقتضبة، متشنجة، غامضة شبه مبهمة ولم يعرف بالضبط ماهية ما تعانيه زوجته فاحترم سلوك الرجل وقدَّر ظرفه فلم يستمر باستجوابه، خاصة بعد أن لاحظ بأنه بساقٍ واحدة والأخرى مبتورة من الجذع، كان هذا أول وأخر حديث يديره آدم تحت ظل تلك الخيمة المسماة "سوبر ماركت" ولم يعاودها قط لأنه بعد يومين لم يرَ الرجل مرة ثانية ولم يكن يرغب بالحديث مع تلك الجالية الغريبة التي تسرح وتمرح في الصالة طوال الليل والنهار كالبق الهائم في ليلة صيف شرقية حارة... لكنه التقاه من جديد بعد أشهر في مركز اللجوء بالصدفة بصحبة سيدة ألمانية قال عنها بأنها زوجته الجديدة بعد أن لقت زوجته الأولى حتفها بسبب علتها.

• • • •

في نهار كانت الريح تلاعب أغصان الأشجار بحنية كما تلاعب الأم خصلات شعر ابنتها الوحيدة طلبت أنهر من زوجها أن يستمع لها لأمر مهم عندما كانا في استراحة الغداء بمقهى مركز اللجوء بعد أن أتما عملهما لذلك اليوم يحتسيان الشاي الأسود الذي قدمه لهما رجل تركي يدعى مراد قريب من عائلة آزار يعمل في المقهى منذ الصباح إلى المساء مع العلم بأنه غير مرغم على العمل لهذه الساعات الطويلة ولا يسمح له قانونًا ولا يدفع لتلك الساعات الإضافية التي يعمل بها أجرًا ومع ذلك يستمر في خدمة

زبائن المقهى التي تعتبر بالنسبة للرجل مثله بيته، حياته، تسليته وعيشته، حاضره الغارب ومستقبله الذي لا يعرف عنه شيئًا ؛ كان بشوشًا، ضحوكًا، يتحدث العربية كما التركية، يرقص ويغني ويعمل في آنٍ واحد وهو راضٍ كل الرضا على حياته ولا يعيبه غير سكره أثناء الليل، فما أن يجن الليل عليه حتى يأمر زوجته بأن تحضر له عدة الشرب وتغرب عن وجهه وهذا ما يحصل كل مساء وحتى ساعة متأخرة من الليل ؛ طويل رفيع بشاربين عريضين أشيبين وشعر رأسه مقصوص على طريقة السجناء كيفما أتفق وأغلب الظن كانت زوجته هي التي تفعل ذلك حيث لا يكلفها شيء غير رقص أصابعها تناغمًا مع أصوات المقص الذي يطلقها في كل حركة تأتي بها فوق رأسه وهو يغني مترنمًا بأغاني "إبراهيم طاطلس" التي يعشقها... وقبل أن تهم أنهر بسؤال زوجها اقترب منهما رجل ببذلة زرقاء شتوية لا تتناسب والفصل الذي هم فيه، سمين طافح بالدهن تجلس أمام عينيه نظارة طبية رخيصة، حليق الرأس والوجه وعلى خده الأيسر علامة فارقة عبارة عن ندب قديم يتجاوز طوله الثلاثة سنتيمترات قريبًا من فمه ويلامس شفتيه من جانبها العلوي ترك أثرًا لا يمحى بمرور الزمن، يحمل تحت إبطه حقيبة سوداء كالحة اللون دبغتها الشمس، وفي يده اليمنى قدح شاي استلمه لتوه من عامل المقهى التركي وهو يطلق ضحكة كالزغرودة مرددًا كلمات ليس لها معنى كثير "أعطيه ماءً" ثم اتخذ مجلسه من طاولة مجاورة إلى التي كان آدم بصحبة

زوجته يلتفان حولها مبادرًا بالحديث والسؤال دون مقدمات كظالم بلا رحمة:

- أنا دكتور محمد من مصر العربية.. ثم مباغتًا كمرابي بغير ذمة: وأنتما من أين؟... وقبل أن يستمع جوابهما تابع برعونة منفلتة: لقد طلقتها بعد أن وقفت على خيانتها وجئت راكضًا إلى هنا... ثم أطلق قهقهات متواصلة تصم الآذان دون اعتبار أو مراعاة لإحساس، أو جدان صائحًا ضاحكا: أعطيه ماءً!

التفت إليه آدم ممتعضًا ببرود مقتضبًا:

- من العراق.

- أنت إذن العراقي الكاتب الفنان الذي حدثني عنه مدير المنظمة الإنسانية السيد يعقوب؟

- نعم، أنا.

صاح بخبل:

- سأجعلك مشهورًا!

- ماذا تقصد؟

وهو يدق صدره كامرأة شرقية في مأتم:

- سأترجم لك ما تكتبه مجانًا إلى الإنجليزية وبذلك تكون كاتبًا عالميًا!

- لكنني لم أدون بعد ما كتبته، أقصد، ليس عندي منشور محرر أو كتاب صادر حتى تترجمه.

- أعرف هذا، لقد حدثني عن مشاريعك بالتفصيل وما تنويان عمله لا تقلق، السيد يعقوب من أعز أصدقائي، يثق بي ثقة عمياء، أنت مازلت لا تعرفني، من حقك أن تتردد... ثم نعق مجددًا بكلمته التي بدت مشهورة من كثرة ما رددها: أعطيه ماءً.

استغفر ربه آدم في سره، ثم نوه بصوت رزين:

- إن شاء الله، لكل حادث حديث، عندما أكون في تلك المرحلة جاهزًا سأبلغك... ثم ختم قوله لإنهاء المحاورة التي وجدها غير مجدية: شكرًا على تفاعلك معي واهتمامك لما أكتب.

أدار بعدها وجهه نحو زوجته، كانت تستمع لهما مأخوذة من غرابة الحديث الذي بدأه الدكتور دون مقدمات أو سابق معرفة، سألها آدم بعد الرشفة الأولى من قدح الشاي المعمول على الطريقة التركية الرائعة في سماور كبير:

- ما وراءك ؟ قلقتُ عليكِ، أراكِ تخبئين شيئًا ما يجول في خاطرك... هذا واضح من حركة أصابعك!

تنحنحت ثم انبرت:

- اسمع يا آدم، أنا أعلم بأننا قد تعاهدنا على أن لا يكون في حياتنا طفل إلا بعد أن نهاجر ونترك بلد الطاعون، وها نحن قد حققنا هدفنا...

أراد مقاطعتها، فاستمرت بحديثها ولم تعطه فرصة للاعتراض:

- أعرف ما ستقول، وضعنا الحالي لا يسمح بالحديث في هذا الموضوع، أعلم جيدًا هذا، لا حاجة بك أن تذكره...

استغرب آدم من ملاحظتها وفراستها، كان اعتراضه الذي أراد أن يبديه فعلاً يتعلق بهذه النقطة، ابتسم لها بحنان وبدأ يستمع لها بحواس متعطشة لمعرفة التتمة، قالت:

- لا تظن بأني غبية لا أفكر، لكنني أريد أن أخبرك بشيء كان قد حصل رغمًا عني...

هنا فضلت الصمت ولاذت به ودمعة كبيرة نزلت على خدها رغمًا عنها...

التقط يدها، لثمها بحرارة، فهم ما لم تقله، سرح في خواطره، خيم السكون فوقهما لا يجرحه غير صوت عامل المقهى مراد التركي وهو يغني ويلبي طلبات الزبائن، والدكتور المصري ما انفك من تكرار مقولته اللعينة، أعطيه ماءً...

طالت جلستهما حتى العصر...

• • • •

موضوع كهذا يهد جبل، يجعل حجارته تتفتت، كيف تكون أنهر حاملاً وهما في ظروف تعيسة لا يعلم من أمرها إلا الله وما يعانون. لا غرفة تؤويهما، لا باب يوصد من وراءهما، لا عمل ولا لغة ولا أوراق تسمح لهما بالإقامة الدائمة، أو السفر، منظرهما كان يوحي بالكارثة قبل وقوعها، همهم آدم بحلق ناشف وذهن شارد:

- المسألة لا تحتاج إلى تفكير كثير ، محسومة ، كل الظروف تعارض ، تفند وتنفي الفكرة ، كيف يكون لنا طفل ونحن في هذا الوضع الكريه غير الطبيعي ؟ نسكن في "سوبر ماركت" لا مرحاض ولا حمام، والأكل نستلمه باردًا في صندوق كارتوني لا نعرف مدة صلاحيته الحقيقية ، ولا على ماذا يحتوي ، وأمور شائكة كثيرة لا حصر لها...

- اختصر... قالت أنهر ذلك وهي تشعر بأن داخلها ينزف مرارة...

- نتخلص من الجنين!

لم تستطع زوجته في هذه اللحظة أن تتماسك ، أو تسيطر على أعصابها ، بكت بشكل مندفع فجائي وهي تطبق يديها الصغيرتين الجميلتين محتضنه وجهها ، ثم غرقت في بكاء أخرس مسموم مميت...

من يعرف أنهر لا يستغرب فعلها ، هي تعشق الأطفال حد العبادة ، تنسى نفسها وهي تلاعب كل من تصادفه في طريقها كأنه طفلها ، وها هي تسمع بأن زوجها يطلب منها قتل ابنها بيدها ، ابنها الذي من حبيبها ، حبيبها الذي انتحرت من أجله وبسببه ، وفي نفس الوقت تعرف بأن الاحتفاظ به جنون ومغامرة لا تحمد عقباها!

(١٣)

غالبًا ما يرجع المرء بعد محاولاته إلى النقطة الأولى التي بدأ منها ويعرف بأنه كان يعرفها

سعت نادين الألمانية التي تعّرف عليها كمال عندما كانوا على شاطئ بحيرة "شتان بيرك" بكل ما أوتيت من حيلة للتقرب منه وجعله يحبها ويتعلق بها؛ لم تكن تعرف المسكينة بأن الأخير كان سيموت لو فارقها، طبعه هكذا، خاصة بعد أن انهارت علاقته بياسمين بسرعة وقتما عرف أخوها بإقامة كمال بالسر معهم فحذره من مغبة تمرده لو لم ينصاع لمشيئته، وفي نفس الوقت توعد لأخته شرًا في حالة استمرارها في غيها، بذلك أسدل الستار وانتهت العلاقة بسرعة كما بدأت... هذا ما جعل كمال يتودد إلى المترجم فرياد محاولة منه لإنقاذه من الضياع والتشرد، وفي ذات الوقت بدأ يبحث عن نادين بكل الوسائل المتاحة للقائها.

كان فرياد يسكن في مركز مدينة ميونخ في شارع عريق يدعى "بوجيا شتراسة" حيث على جانبه اليمين زرعت دائرة العمل بلونها الأبيض والأحمر ويقابلها بعد الابتعاد أمتار قليلة مقبرة ذات سياج عالٍ لا يشاهد منه الرائي غير أغصان الأشجار المتسلقة... كنا قد وصفناه وتم ذكره في بداية الرواية.

يعيش فرياد في غرفة صغيرة كالقبو مع شاب صيني أسمر قصير ضعيف يتكلم الألمانية بشكل مضحك على نكهة ولكنة صينية بريئة وهو أكثر سكان المبنى مسالمًا وهادئًا وعندما تراه يتحدث فلا يتكلم إلا في موضوع الأكل وخاصة الأرز... الغرفة كانت في الطابق الرابع بلا مصعد كهربائي، الحمامات كالعادة مشتركة، والأسرّة الواحد فوق الآخر كأسرّة أسرى الحرب العالمية، وفرياد لا يرجع لغرفته إلا في ساعة متأخرة من الليل، غالبًا ما يكون بصحبة فتاة من فتيات الهوى؛ ما عدا ذلك تجده إما في العمل كمترجم، أو يمارس رياضة لعبة كرة القدم في نادي "آكفا" المحلي الواقع خلف بناية مركز اللجوء مباشرةً، يلعب هناك كلاعب أساسي.

اصطاده كمال في فرصة استراحة الغداء... رحب به فرياد، سأله عن أحواله وظروفه، أجابه وهو يحاول أن يرسم ابتسامة على وجهه فظهرت باهتة لا معنى لها، قال:

- الحقيقة يا صديقي أموري لا تسر.

- لماذا؟

- لأنني أعتبر نفسي منذ اليوم أعيش في الشارع، لا مأوى عندي، حالي يصعب على الكافر، أنهر وزوجها كما تعلم يعيشان في "سوبر ماركت" بعد أن رفضتُ الذهاب معهما، وحيثما كنت عند العائلة العراقية التي تعرفها طُردت منها، أخوهم الكبير الذي يقيم هنا منذ فترة طويلة عرف بأمري فنشب شجار بيننا أدى إلى طردي، وها أنا الآن لا أعرف أين أنام...

ثم طفرت الدموع من عينيه الزرقاوين بشكل لا إرادي دفعة واحدة.

برنة جدية مفتعلة:

- لا تقلق، تأتي معي اليوم وأنا سأتدبر أمرك وأجعلك تسكن في نفس البناية التي أقيم فيها...

لم يتم كلامه، قاطعه كمال بعد أن همَّ واقفًا وهو يقبِّله بخبل من رأسه غير مصدق ما يسمع، يسكن في بناية وفي مركز المدينة ومع فرياد؟... صاح به الأخير مطمئنًا:

- لي في مكتب الاستعلامات صديقة ستلبي طلبي دون تفكير، أنا متأكد مما أقول، تعال معي وسترى بنفسك...

وبالفعل، ما أكَّده فرياد حصل، أخذ وعدًا من مديرة مكتب السكرتارية في البناية التي يسكن فيها بأن هناك سريرًا سيكون شاغرًا خلال أيام قليلة وستحجزه لكمال... مثل هذا الأمر لا يحدث دائمًا، كان يعتبر معجزة في تلك الأيام، لكن الوضع لم يتغير، أين سيسكن لحين استلام سريره؟ هذا ما أقلق فرياد، لكن الأخير ومضت في ذهنه فكرة جعلته يطير من الفرح، صاح بصديقه:

- اسمع، الشاب الصيني قال لي بأنه سيغيب عن ميونخ لبضعة أيام لأمر مهم عليه إنجازه في برلين، هذا يعني ستنام معي في نفس الغرفة لحين عودته، أو استلام سريرك في الغرفة الموعودة.

رفعه من على الأرض بعد أن أحاطه بكلتا يديه وهو يبكي من الفرح مغمغمًا:

- هكذا يكون الصديق وإلا فلا... ثم أردف : أدعوك لأن نتعشى الليلة على حسابي وفي المكان الذي تختاره.

- بشرط!

- موافق قبل أن أعرفه.

- أن يكون معنا آدم وأنهر.

- لنتوجه إليهما إذن.

• • • •

بطريقتها الخاصة عثرت نادين على كمال بعد أن استقر به الحال في غرفة مستقلة بصحبة رجل إيراني سمين بنصف عقل، عاش رُبع عمره في أمريكا ثم عاد إلى ألمانيا التي تركها قبل أكثر من عشر سنوات نادمًا، وها هو اليوم يقاسم كمال الغرفة، يغني ويضحك ويرقص غير مبالٍ بما يحدث حوله وكأن ما يحدث في كوكب آخر غير الأرض التي يحيا عليها.

خارت قوى وإرادة كمال أمام إغراء نادين من الوهلة الأولى، انصاع لها ولرغباتها، أهوائها، جموحها وطموحها، دون أن يقدر على رد أي طلب لها، غرق معها في حب متوحش لم يعرف الاعتدال في شيء... عرفت نادين بخبرتها أن كمال يموت في الجنس، حرمانه منه طوال الفترة السابقة جعل منه شابًا يسجد تحت قدم الفتاة التي تعطيه دون حساب، في أي وقت ومكان... والرجل الإيراني كان يرى كل شيء ويعطيهما ظهره، يسمع

ويضحك، ثم يبدأ بالغناء باللغة الإنجليزية التي يتقنها جيدًا على طريقة أهل تكساس مترنمًا لا يطق له عرق ولا يشعر بتقزز أو رغبة تراوده.

عندما أحسَّت أنهر بغياب أخيها وطالت غربته وهو بصحبة نادين ليل نهار خافت عليه كثيرًا، قررت أن تتحدث معه بصراحة وإلى أي هدف يريد الوصول من وراء علاقته بالألمانية ولم تحصل على جواب شافٍ غير أنه يتسلى ويتلهى وهو بذلك لم يكن صادقًا، فقد كان غارقًا حتى أخمص قدميه بحبها يطلب في كل لحظة وصالها لا يهمه من أمر دينها أو قوميتها شيء غير تحقيق نزواته وإشباع شهواته والباقي يتركه للزمن كما قال ذلك لأنهر كاذبًا وعبر لها عما تخالجه نفسه... هي لم تكتفِ برده، كانت وقتها بصحبة آدم في غرفته والإيراني معهم، الأخير لا يغادر الغرفة إلا ما ندر، يرطن أحيانًا ببعض الكلمات بالعربية مجاملاً ثم يبدأ بالضحك دون سبب، وقفت أنهر أمام أخيها في ذلك العصر الذي بدأت فيه الشمس تسحب أذيالها من على أسطح البنايات معلنة بصمت عن وقت مغادرتها:

- لم أقتنع بما قلته.

مجازفًا كمقامر لا تهمه الخسارة:

- عنكِ لا تقتنعي، ماذا أفعل كي تصدقينني، ومن ثم هذه حياتي وأنا حر فيما أفعله.

- ما هذه اللهجة الغريبة التي تحدثني بها؟ لم أعهدها من قبل...

- تعودي عليها منذ اليوم إذن!

- هكذا... تبيعنا بهذه السهولة وتتخلى عنا؟

- لم أشترِ ولم أبع، كل ما في الأمر هو إني سعيد مع نادين وأحب أن أبقى معها، هذا ما أعرفه الآن، ما يخبئه لنا المستقبل أجهله... توقف لبرهة ثم تابع بذات الرنة المتحدية وكأنه لا يحب أن يسمع إلا صدى صوته: نفكر بجدية أن نسكن في شقة معًا، هي الآن في سنتها الثانية من دراستها وتحصل على راتب يمكننا من العيش باستقلالية، وأنا سأدرس اللغة، وهي ستنظم لي حياتي أفضل مليون مرة من لو كنت لوحدى، فكري يا أنهر بالأوراق الرسمية، السماح بالعمل والسفر، الجنسية فيما لو حصلت عليها، كل هذه الأشياء مغريات يضعف الشخص الذي بمثل حالي وظروفي أمامها، لماذا تطلبين مني أن أكون جامدًا لا أتحرك أو أن أطور نفسي بسرعة، هل كتب عليّ أن أعيش سنوات حتى يتسنى لي الدراسة والعمل والسفر؟ لا، لن أنتظر كثيرًا وسأحقق ما رغبت مع نادين وهي ابنة البلد وتعرف كيف ستحصل لي على كل هذه المميزات بطرفة عين...

ثم سكت بعد أن تصبب العرق من على جبينه فصوصًا...

بكدر مهضومة لا تريد أن تصدق ما تسمع وترى:

- ألا يكفيك ما يحصل لأخينا كريم؟ أنظر إليه، لا هو في السماء ولا على الأرض، ليس أوربيًا ولا شرقيًا، ابنه لا يعرفه، أو بالكاد يتعرف عليه، صديقته لا يهمها إلا حياتها ولا تفكر إلا بنوازعها

ومصلحتها، هو أكد لي ذلك بمرارة قاتلة، اسأله لو لم تصدقني، لماذا تريد تكرار تجربته؟ فكر فيما لو رزقت بطفل، ماذا ستفعل به؟ على أي دين سيكون؟ كيف سيكون مستقبله؟ هل يكون عربيًا عراقيًا أم أوربيًا ألمانيا؟ سيتزوج بمن؟ كيف سيكون حاله؟ بل ماذا عن دينك أنت؟ هل ستلتحق بالركب وتصبح مسيحيًا؟ ما شاء الله، أراك لم تفكر بكل هذا، وكل رغباتك كانت منصبة في نقطة واحدة، الجنس، أليس كذلك؟...

قالت ذلك ثم انهارت، كانت ترتجف وهي تتحدث، انفعالها كاد يأتي على قلبها، أمسكها آدم من خصرها، أجلسها على السرير، أخرج من حقيبته التي يحملها على ظهره قنينة من المياه المعدنية وقدمها لها، طلب منها أن تستريح، أن تكف عن الكلام، أن تهدًا ولا تفكر بشيء، قال:

- لا داعي لكل ما تفعلينه، سوف لن يؤدي إلا إلى نتيجة واحدة، إذ وكما أرى، كمال يريد الزواج من نادين وقد اتفقا على ذلك حتى ولو لم يصرِّح به، المسألة واضحة لا تحتاج إلى ترجمة، لكنني أرى من واجبنا أن نخبر كريم بما يحصل.

نبر كمال متسرعًا:

- هذا ما سأفعله دون أن أنتظر نصيحة من أحدهم!

شعر آدم بأنه المقصود، أشار لزوجته بأنه يحب مغادرة الغرفة ليتنسم الهواء الطلق، كمال نسى بسرعة تاريخه، محا ذكرياته برمشه عين، لم يعر أدنى اهتمام لقول أخته أو رأي زوجها، كان

يتكلم كواثق من نفسه، بجرأة غير معهودة، هذا ما جعل أنهر توافق على رأي زوجها، يتركانه وحيدًا مع الرجل الإيراني الذي ظل طوال الوقت يوزع ابتسامات غير مبررة كأنه كان يفهم كل ما كان يدور، يلعن صامتًا القدر والأيام.

(١٤)

الليل غابة ، أشجارها الصمت والسكون ونفحات من الريح ؛
القمر هالة ، الشمس صادقة لا تكذب ،
والزمن وعد مثل نجمة راسخة نجهل الكثير من أسرارها

في صباح اليوم التالي وأثناء عملهم في مركز اللجوء تقدم كمال من أخته يخبرها بضرورة تواجدها في المحطة الرئيسية للقطارات بعد غدهم السبت ظهرًا ولم يصرح لها أكثر محاولاً أن يكون الخبر مفاجأة وهو ينوه لها عن رغبته في حضور آدم معها بعد أن حدد لها المكان الذي يتوجب الانتظار فيه، رصيف رقم ٣ ولم يعط معلومات أكثر، ثم غادرها يحجل بمشيته نحو عمله...

استغربت تصرفه وسلوكه، وجدته طفوليًا لا يتناسب وسنّه، هزت رأسها ممتعضة واتجهت نحو زوجها الذي كان بصحبة مدير المنظمة الإنسانية يخططان على إحدى جدران غرفة حضانة الأطفال للوحة بلقم الرصاص عبارة عن مجموعة من المناظر لأثار حضارية عريقة تخص مجتمعات متعددة ، منها البابلية ، المصرية والأفريقية... نوهت هامسة بأن يحضر بغية التحدث معه في أمر مهم بعد أن رحبت بمسؤول عملها السيد يعقوب... سألها خفيض الصوت:

- ما الخبر؟

- كمال يريدنا أن نكون بعد غد السبت ظهرًا في محطة القطارات على رصيف رقم ٣ ثم سكتت.

- أي... وماذا بعد؟... أضاف: ألم يخبرك لماذا؟

- لا.

- هذا الرجل سيجننا، لا أعرف كيف أتصرف معه، ما رأيك أنت؟

- أن نذهب ونرى ما يخبئه لنا...

- حسنًا.

غادرتهما منسحبة بهدوء بعد أن تمنت لهما وقتًا طيبًا...

• • • •

جاءهما الفرج بفرزهما أخيرًا في منطقة تقع شرق مدينة ميونخ تدعى "ريم" فيها يقع مطار المدينة قبل بناء المطار الدولي الجديد المعروف حاليًا القريب من منطقة "فرايزنك". المسكن جديد البناء من الخشب، يحاذي سكة القطارات المتجهة لشمال وشرق ألمانيا، يتكون من أربعة بيوت متوازية ذات طابق واحد بحمامات ومراحيض ومطبخ مشترك كالعادة، والغرف لا تتعدى مساحة الواحدة عن مترين مربعين مجهزة بسخان غازي يستعمل للتدفئة يخرج منه لهب أحمر يثير الرعب في النفس ويحفز الرئة على الإصابة بالربو، أرضية البيوت الأربعة كلها من خشب مغطى بطبقة بلاستيكية تزحلق، وفي أول بيت استحل جماعة من الطلبة الألمان من كلا الجنسين شؤون إدارة البيت والعناية بالساكنين عند

الضرورة، هؤلاء الطلبة كانوا يعملون بعد الظهر لمساعدة أنفسهم على تحمل المعيشية وفي ذات الوقت يدرسون في جامعاتهم ، كانوا والحقيقة تقال شبان طيبين، يتحدثون اللغة الإنجليزية بشكل رائع مما توطدت علاقة اللاجئين بهم بسرعة فقوى عودها ومتن وكانت هذه الأمور جديدة في حياة أبطال روايتنا لم يعتادوها من قبل... لنقل، أصبحت هناك نقلة نوعية في ظروفهم نحو الأحسن، حيث الطمأنينة، الاستقلالية، وقليل من حرية التصرف في السكن، المعيشة والحياة إجمالاً...

لكن هذا الشعور لم يدم طويلاً، سرعان ما تهاوى حلمهما، تداعى وتقوض ؛ فالساكنون كانوا من مختلف الجنسيات والقوميات والديانات ، اختلط كما يقال ، الحابل بالنابل ، الأفارقة كانت أصواتهم كأصوات الأبواق لا تطاق... ثم تجمعات العائلات الصينية كانت هذه لوحدها مشكلة، لهم برامج غريبة، أولها أنهم لا يحبون الاختلاط... أما الغجر الرومان فحياتهم كانت ضحكًا دائمًا يصاحبه رقص على أنغام آلة الأورغن التي يجيد الملاعين بحرفية رائعة صنعتها... ناهيك عن المفاجأة التي أرعبت آدم بوجود الدكتور محمد المصري صاحب مقولة "أعطيه ماءً" الذي تعرف عليه في مقهى مركز اللجوء ويرغب بمساعدة آدم في ترجمة أعماله الأدبية إلى الإنجليزية بأنه أحد الساكنين، بل يقيم في غرفة قريبة من غرفتهما، مما سيضطرهما إلى مجاملته دون رغبتهما وهو الذي يعمل كما يعملان في مركز اللجوء مما سيسبب لهما أرقًا دائمًا مستمرًا.

وما توجس منه آدم حصل ، خاصة عندما عكَّر صفو حياتهما مجموعة من الشبان العرب بالاختلاط بأصحابنا بداع أو بدون يتحرشون بهما بغية إثارة المتاعب كأنهم يتقصدون إغاظة أنهر وإزعاج زوجها في ذات الوقت... كل هذا حدث بعد أن مرت أنهر بتجربة مريرة ، قاسية قبل أيام وقتما تخلصت من الجنين دون رغبتها مع معاناة خاضتها مع دوائر الدولة ومستشفياتها لأنهم رفضوا عرضها بالتخلص من جنينها واعتبروه جريمة إنسانية لا يودون الاشتراك بها ، لكن بعد شرح تفاصيل معيشتهما المضنية البائسة لرئيس إحدى المستشفيات تمت الموافقة ، وبذلك تخلصت أنهر عن جزء من كيانها بسبب ظروف غربتها غير الطبيعية وبقيت تتذكر ذلك مقهورة مغبونة بقوة في كل مناسبة عندما ترجع بها ذاكرتها إلى الوراء.

• • • •

كما اتفقا مع كمال توجها إلى محطة القطارات ، هواجسهما كانت مختلجة ، لا يعرفان ما ينتظرهما ، ولماذا هذه السرية كلها ؟ هكذا دفع كلماته آدم وأطلقها بتبرم واضح كأنه يتحدث مع نفسه... اقتربت منه أنهر ، وقفت قبالته تمامًا حتى التصق صدرها بصدره، رفعت عينيها الجميلتين الخضراوين نحوه ، تفرست في وجهه ، كان في داخلها لحظة شبق له ، اشتهته فجأة لا تعرف لماذا ؟ انتبه لها ، وصلته الإشارة ، عرف من بريق عينيها بأنها ترغبه في هذه

الثانية من عمر الزمن، أمسك كتفها، ثم رأسها، قرب خدها وطبع قبلة حارة عليه، بوجد حارق يتناسب ما يموج ويلوج في داخل زوجته، قال:

- أحبك يا غاليتي.

أخفضت رأسها نحو الأرض، خجلت، أحمرت، ابتعدت قليلاً عنه نوهت:

- أموت فيك... ثم متخابثة مازحته: وعلى أي شيء؟ سمارك أم طولك؟

- على الاثنين طبعًا، مضافًا لهما عقلي!

- هه... ومن يدافع عن العروسة؟

- المفروض، زوجها!

ضحكا ببراءة كضحك الأطفال وهما ما زالا بوقفتهما على الرصيف بانتظار كمال الذي تأخر عن قدومه، ثم فجأة ظهر الأخير كالقدر كأنه نزل عليهما من السماء، صاح ملهوجًا كعادته مثل صبي مدلل:

- أنظرا إلى هناك...

تفتحت وتحفزت رغبة أنهر لمعرفة ما يكون هناك، فضولها كان قويًا، لم تر أحدًا، آدم نظر إلى زاوية أخرى غير التي صوبت زوجته بصرها إليها، رأى كريم يقف متكأ على حافة حاجز حديدي قريب من رصيف رقم أربعة المحاذي للرصيف الذي يقفون عليه، قال:

- هناك يا أنهر ، إنه كريم... هيا ، لنستقبله في مدينتنا العريقة ، سيكون في ضيافتنا.

ربت على كتف نسيبه، نوه ضاحكًا:

- أحسنت صنعًا يا صهري الوسيم ، مفاجأة رائعة تستحق عليها الشنق.

ثم هرولوا نحو كريم دون أن يشعروا ، بدافع الحب والشوق وداخلهم يترجرج بمشاعر فياضة كالتي تحملها الأم في لقاء ابنها المغترب منذ عقود.

فرحة أنهر بلقاء أخيها كريم مثل فرحة النورس للقاء البحر ، صاحت ما أن رأته من بعيد بعد أن نوَّه زوجها عن مكانه:

- كريم!

ركضت نحوه متناسية نفسها والناس... حضنته ، قبّلته ، ثم بكت على صدره دون إرادة... حتى هذه اللحظة وعندما يتذكرون الموقف لا أحد يستطيع أن يعرف بالضبط لماذا بكت أنهر بقوة متشنجة وقتما رأت أخاها في المحطة؟... وعندما سألها آدم عن السبب ، عجزت مسحوقة عن الإجابة ، قالت بصدق وبكلمات مقتضبة:

- لا أعرف، صدقني، أنا نفسي أجهل السبب... وكلما تذكرت تلك اللحظة يعاودها حزن عميق راكد كالصخر على الصدر وكآبة لا تخرج منها لأيام دون أن تقف يومًا عن العلة من وراء ما يحصل لها.

دعاهما آدم لسكنهما الجديد في منطقة "ريم" ، وافق نسيبه على الدعوة، كمال لم يعترض، كان منشرح النفس يضحك دون سبب، قال:

- أنا جائع جدًا يا أختي، ماذا ستعدين لنا؟... تابع: أشتهي بطة مع الرز على طريقتنا المفضلة التي تعرفينها!

خفضت رأسها كأنها اقترفت ذنبًا، شرعت:

- لو كنت قد أخبرتنا بالمفاجأة التي حضرتها لنا لجهزت لك ما ترغبه، لهذا، سوف نمر بالسوق للتسوق قبل أن نتوجه لغرفتنا.

استقلوا قطار رقم ٦ الذي يسير تحت وفوق الأرض متوجهين إلى منطقتهم الجديدة، وقبل أن يصلوا بثلاث محطات طلبت أنهر منهم الترجل للتسوق كما اتفقوا وهم ما انفكوا عن الحديث في كل شيء إلا ما يتعلق بأمر زواج كمال، لم يشأ أحد التطرق إليه وهم مازالوا في الطريق.

• • • •

عند المساء وبعد أن شربوا الشاي الذي أعده آدم بنفسه فتح كمال الحديث مع أخيه بشأن نيته في الزواج من نادين، قال:

- أخي الحبيب، انتظرت هذه اللحظة منذ زمان، أن نلتقي ونتحدث عن أشياء مهمة لابد منها، ها أنت قد لبيت دعوتي مشكورًا... توقف لبرهة، أردف: بلا لف أو دوران، تعرفت في الآونة الأخيرة على فتاة ألمانية مازالت تدرس مهنة الحلاقة، أكبر مني

بعامين ونصف لكننا نحب بعض ونرغب بالارتباط رسميًا ، إذ وكما تعلم ، هذا الأمر سيفيدني جدًا في حياتي ، اللغة ، الجنسية ، الاعتماد على شخص من أبناء البلد يعطيك دافعًا في التعلم بسرعة وتركن في نفس الوقت للراحة مما يجعلك مطمئنًا وأنت تعيش في مكان جديد لم تألفه بعد وأسباب أخرى لا تغيب عن بالك ، أدرى بها ، تتعلق بشاب في سني وما ستهيئه لي من حاجات أنا في أمسِّ الحاجة لها.

ابتسم كريم بعد أن سمع الجملة الأخيرة ، عرف بحدسه بأن أخاه يلمح للجنس، سيكون موفقًا لو ارتبط بتلك الفتاة، مثل هذه الأمور يخبرها كريم، لم تفته، أجابه:

- اسمع يا كمال ما سأقوله جيدًا... تستطيع أن تفعل ما يحلو لك بشرط!

دون لحظة تفكير:

- ما هو؟

- أن تتحمل نتائج قراراتك... ثم أضاف: أنا أعلم بأن ما ينقصنا المرأة التي من ديننا ، هي الآن غير موجودة ، لكنها ستكون هنا بحكم ما سيحدث في منطقتنا من كارثة تؤدي إلى نتيجة طبيعية من هجرة وتشرد ، وقتها سيكون لك أكثر من اختيار ، أنصحك بعدم التعجل في أمر الزواج ، أكرِّر : أنصحك ، ليس في وسعي أن أجبرك... أدار رأسه إلى أنهر ، وجدها سارحة تتأمل حديثه، نوه:

- ما رأيكِ أنت يا جميلتي؟

لم تنبس، أخذت صفنة، نظرت إلى كمال، طفقت:
- قلت له رأيي ولم يعجبه.
- وماذا كان؟
- الرفض طبعًا.
- الأسباب؟
- كثيرة لا حصر لها...
- مثلاً؟
قال ذلك كريم برغبة أصبحت محمومة لمعرفة ما تكنه أخته بشأن الزواج من امرأة أجنبية ليس على دينهم وهو يتذكر صديقته كاترين دون أن يفصح عما كان يخالجه من شعور في هذا الشأن:
- أراك تعرف وتحرف!
ضحك كريم، قال:
- مازلت أنتظر ردك، أقصد، الأسباب التي تجعلكِ ترفضين بشكل قاطع طلبه.

- الدين أولها، والأولاد ثانيها، ثم خروجه عن دينه سيجعله منبودًا لا يقربه أحد، ماذا عن أهلك لو سمعوا، ماذا ستقول أمنا عندما تعرف بأن مدللها الغرّ سيتزوج من فتاة تكبره عامين في أقل تقدير ولا أحد يعرف بالضبط الحقيقة التي تتعلق بتاريخها، ناهيك عن الطبائع، الميول، اللغة، وأشياء غيرها كثيرة لا تعد ولا تحصى بل لا يمكن توضيحها لأنها تتعلق بالمعاني، أعني، التعامل، الحرية، التوجه، مسائل التقدير والاحترام، وهكذا أمور يومية،

حياتية معيشية لا ينتبه لها المرء إلا بعد أن يواجهها ويلتقي معها وجهًا لوجه، وقتها سيعرف ماذا أقصد، أنت أدرى بها ولا أرك لا تعرفها بعد هذا العمر الطويل من الغربة وكل هذه الخبرة التي جمعتها بهذه السنون؛ لذلك، لا أرى سببًا واحدًا يدعوه للتعجل وإشهار مسيحيته بهذه السهولة لمجرد تعرفه على فتاة منذ فترة قصيرة تعد بالأيام ومن أجلها يريد تدمير حياته!

هنا لم يطق كمال الصبر، قاطعها بخشونة ورعونة متمرن عليها بسبب دلاله المفرط من قبل أمه بدرية، ناعقًا بلا أدب:

- لماذا تتدخلين فيما لا شأن لكِ به؟ هذه حياتي وأنا حر بها... ثم سكت بعد أن غلبه كريم في الكلام:

- لا أسمح لك بأن تتحدث مع أختك بهذه الطريقة، قد تكون أنهر بالغت في القول، لكن هذا لا يعطيك الحق بأن تنهرها هكذا وكأنها أجرمت بحقك.

حاول آدم التدخل، فلم تسمح له أنهر بنظرة فهمها زوجها من فوره وغيَّر رأيه، لاذ بالصمت واكتفى بالتحديق، حتى رنَّ صوت كريم في الغرفة معلنًا عن نيته الذهاب إلى وسط المدينة للمشاركة في احتفالات شهر أكتوبر الشهيرة التي تقام كل عام في مدينة ميونخ يكون فيها شراب البيرة "البافارية" سيد تلك الاحتفالات التي تُنصب فيها الخيام الكبيرة والألعاب بكل أنواعها ولكل الأعمار.

كمال صفق للفكرة، قال:

- سمعت عنها ولم أزرها بعد، أتوق للصعود في عربة الموت.

نادى على أخته وصهره كأنهما بعيدين عنه:
- ها... ماذا تقولان يا أحبائي، هل ستأتيان معنا؟
صدح كريم متدخلاً:
- بالتأكيد سيأتيان، وهل هذا سؤال يسأل؟
ثم حسم الأمر دون الرجوع إليهما:
- طبعًا سيكونان معنا...
ثم تابع مستطردًا:
- اسمعوا، هذه الاحتفالية تقام كل عام كتقليد منذ سنة ١٨١٠ على حديقة "تيريزن" لمدة تتراوح أسبوعين يقدر عدد زائريها خلال الفترة التي ذكرتها السبعة مليون ، ولكم أن تتصوروا الزحام والصخب الذي يحدثه عدد كهذا في وقت محدد ضمن مساحة مرسومة لا يخرج الزائر عن دائرتها، تجدون فيها العجب، حيث الشراب والطعام والألعاب والموسيقى على قدم وساق بمختلف أنواعها، هذه فرصة لن تعوض...

تبادلت أنهر مع زوجها النظرات ولم يقولا شيئًا ، غيرا ملابسهما ، وانطلقوا نحو مركز المدينة حيث ساحة احتفالات أكتوبر الشهيرة، ولم يعودوا من هناك إلا في منتصف الليل، كريم يترنح من السكر دون كمال الذي اعتذر كاذبًا بأن صداعًا ألمَّ برأسه في حين كان على موعد مع صديقته نادين التي كانت في انتظاره في غرفته المزدوجة مع ذلك الإيراني نصف المجنون ونصف العاقل... أقل ما يقال بحق كمال في تلك اللحظات بأنه شاب أخوت.

(١٥)

قوة أي شخصية لا تتمثل بالطيبة ، بل بالدهاء

قبل أن تكون المهلة التي أعطتها الأمم المتحدة للكايزر العراقي بالانسحاب من الكويت بأيام قليلة نافذة وحيث الأجواء العامة كانت مكهربة، متوترة حد الانفجار في أي لحظة في بداية يناير من عام ١٩٩١ ؛ بكت نادين وهي جالسة بجانب صديقها كمال في قطار المترو بصحبة أنهر وآدم وهم ينوون التوجه للتسوق في أحد أكبر الأسواق الموجودة في مدينة ميونخ والتي تقع في مركز الأولمبياد الشهير.

البرودة التي لم يعتادها أصدقاؤنا ، كانت بالنسبة لهم قاتلة كسم العقارب السامة تصل إلى عشرة تحت الصفر ، مما عذَّب آدم بالتحديد نتيجة تورم أصاب أصابعه بسبب البرودة القارصة القاسية في شتاء يجربه لأول مرة في حياته في دولة أوربية لم تكن الأبرد في القارة، ومع ذلك ظل يعاني ألم التورم حتى تعود جسمه على الأجواء بعد مضي أكثر من خمس سنوات مدمرة لصحته.

كانت نادين تبربر دون جلبة، تبكي بكاءً أخرسًا ؛ انتبهت عليها أنهر فحنَّ لها قلبها، سألتها بصوت خفيض يشبه الهمس كيلا تثير انتباه باقي الركاب باللغة الإنجليزية:

- ماذا هناك؟ لماذا تبكين يا عزيزتي؟

لم تجبها ، اكتفت بالتحديق ثم تابعت بكاءها الملغم بلا صوت... كانت تقابل أنهر في جلستها، الأخيرة أخذت يدها، فركتها بحنان، كررت عليها السؤال:

- لكل مشكلة حل ، قولي لي ما وراءك ؟ من الذي ضايقك ؟... أضافت مازحة : أخي كمال ؟ سألوي رقبته كما تلوى الحبال لو كان السبب.

تغيرت فجأة ملامح نادين ، تفتحت أساريرها ، ابتسمت كأنها لم تكن تبكي أو تنوح قبل لحظة... استغربت أنهر هذا التطور ، التبدل والتحكم في مشاعرها وسلوكها يثير الدهشة، ناحت نادين:

- أنا حامل يا أنهر ، وكمال لا يريد طفلاً الآن ونحن لم نتزوج بعد!

صعقت أنهر لدى سماعها الخبر ؛ كان هذا أخر ما تتوقعه منهما ، التفتت إلى زوجها الجالس بجانبها وسألته دون شعور :

- ما قولك أنت؟

أخذ صفنة طويلة قبل أن ينبس، بعد أن عاد له وعيه، شرع:

- أرى أن الأمور أخذت منحى آخر ، فنادين مازالت طالبة وكمال غير مستقر يعيش في غرفة مشتركة في سكن اللاجئين، لا يعمل ولا يحق له العمل، فأي طفل هذا الذي يتحدثان عنه؟!

تابع موجهًا الكلام لنسيبه كمال:

- ماذا عنك ؟ ترفض وأنت مشترك في العملية وأحد أسبابها ! ، تعرف تمامًا بأن ما يحدث بينكما يؤدي إلى نتيجة كهذه، مارست

معها حياة طبيعية كحياة زوج وزوجة ثم ترفض الواقع وأنت أدرى به ! غريبة تصرفاتك يا صهري ، ترى كيف ستحل الموضوع ؟ إذ وكما تعلم بأننا متزوجان ولاقينا صعوبة في التخلص من الجنين، فكيف والحال هكذا وأنتما لا تتمتعان بالصفة الرسمية أمام دوائر الدولة؟ هذه معضلة... أنت اليوم أمام خيارين لا ثالث لهما، إما الزواج منها وتقبل الأمر الذي أنت سببه، أو أن تهجر الفتاة والطفل وتهرب...

وقبل أن تقاطعه زوجته، كان كمال منهارًا تمامًا، ينظر في عينيه الجميلتين ولا يستطيع الرد، متجهمًا حد الانهيار التام، هو يعرف قوته ، لا يستطيع تحمل مسؤولية نفسه ، فكيف سيستطيع تحمل مسؤولية أسرة وهو في وضع كهذا؟ صدح صوت أنهر :

- أنا لا أسمح بهذا.

ثم خففت من لهجتها بعد أن شعرت بأنها متشنجة وقاسية وهي توجه الحديث لنادين:

- هل أنتِ متأكدة مما ذكرتِه؟

مطأطأة الرأس كاذبة:

- نعم، مائه بالمائة.

احتارت أنهر في أمرها، فهي فتاة مثلها، تشعر بها من كل قلبها، أخوها كان سبب حملها، نوهت بحرقة:

- دعونا الآن من هذا الأمر ، نحن نتوجه إلى السوق، لنأخذ فترة أطول للتفكير، القرار لكما، الدنيا لن تطير، سنجد حلاً بالتأكيد.

أرضى هذا الكلام الجميع ، شعروا بالراحة جميعهم... وعندما أعلن مذياع قطار المترو بأن المحطة القادمة هي مركز الأولمبياد هموا واقفين استعدادًا للنزول.

• • • •

الكايزر العراقي كان كالبغل مشهور بالعناد الأرعن ، حرّن ، رفض الانسحاب ، فحلَّ الخراب ، انتشر الدمار ، تناثرت الصور المرعبة الحزينة المؤسفة التي كانت تتناقلها وسائل الإعلام وهي تنشر على العالم كيف كان الشباب العراقي الجميل يُحرق بنيران قوات التحالف دون أن يطرف للكايزر رمش وكأن من يموت ليس من شعبه ولا من ملته ودينه ولا هو بالآدمي الذي خلقه الله على أجمل صورة ولا يحق للغير تعذيبه بهذا الشكل المروع الذي لا يمت للإنسانية بشيء !

ما حدث حرَّك في آدم مشاعر دامية، نازفة باللوعة، جعلته يبكي وجدًا حارقًا على وطنه وأبناء شعبه، أمسك القلم، كتب ما لم يكتب مثله في حياته قط، قصة قصيرة كانت السبب المباشر في قبول لجوئه السياسي مع زوجته، قصة بعنوان "الكايزر العراقي" التي كانت لها أصداء رنانة في الأوساط العربية وقتها في ميونخ وغيرها من المدن التي يكثر فيها العرب كمدينة "بون" العاصمة قبل أن تتغير بعد الوحدة لتصبح برلين هي العاصمة ، تلقفتها المجلات العربية ونشرتها بسرعة فانتشرت كما تنتشر النار في

الهشيم، كانت بالفعل قصة محكمة، تجاوزت المألوف في الأدب، صريحة لحدود اللعنة، هذا ما قاله كل من قرأها وكأن كاتبها لم يكن شرقيًا، الغريب أو المثير فيها هو توقعه لنهاية الكايزر وما سيؤول له الشعب من بعده كأنه كان يعيش المستقبل بالفعل، إذ تكهنه بحسه الدقيق جعله يتوقع كيف ستكون نهاية الكايزر المخجلة، المخزية، المجللة بالعار والمغلفة بالقار كل ذلك جعله يرسم بكلماته تلك الرؤيا السليمة، الصادقة، الواقعية لخيال كان لم يخطر على بال أحد، فصور الحدث قبل أن يحدث، هذا ما أعطى للقصة صفة التفرد والتمييز، جاء فيها:

الكايزر العراقي

زمن القصة:

حفرة كبيرة مثل جبل في الظلام، زمنها زمن منهوب واقع بين ولادة القيصر وحتى ولادته الثانية والعاشرة والمستمرة إلى جحيم الآبدين... لأنه وببساطة شديدة رب، والرب لا يموت!

سحقًا لنا...

لماذا نريد منه أن يموت؟!

مسرح القصة:

كل العالم إلا الوطن!

مكان يعرفه كل العراقيين الذين ولدوا بمعجزة! وما يكون مسرح قصتي غيره؟!

ضياع العراقيين في متاهات الغربة طبعًا.

القصة:

عجين لا يريد أن يختمر!

أقول عكس ما تقوله الكتب:

إن من يعرف الحقيقة هو من لا يتجرأ على الكذب.

الكايزر العراقي قصة قصيرة، صريحة وسرية جدًا، لذلك، أعلنها على الملأ قبل وقوعها كخطط حروبنا المخجلة ضد إسرائيل!

أحذركم من (فشها أو طشها) لأن الحقيقة القاسية المؤلمة أو المخجلة في بلادنا يجب أن تبقى سرًا كالفضيحة! خاصة إذا تعلقت بحقبة تاريخية مهمة من حياة أولى حضارات العالم قبل طغيان العصر الهمجي المنحدر من زمن الديناصور النادر المهجن بالتبني من سلالة جنس الكايزر العراقي الخالد الأزلي والأبدي وحتى انقراض أخر جنس بشري عراقي على أرض مهد الحضارات؛ بابل التاريخية!

أنا هنا مجرد شاهد على هذا العصر كمؤرخ مخلص لا أريد إلا أن أروي ما سمعته ورأيته في السنين المنقرضة الحاضرة والآتية وأقول هذا لأن زمن القيصر يمر سريعًا كالبرق لا نكاد نحسه فكيف لنا أن نحسب حركته ؟! فارتأينا أن نقدِّر سنوات حُكمه بالأيام! ارتاح لمعادلتنا الحسابية هذه كثيرًا... كافأنا بغدق بأن نفانا نفيًا وهو يضحك بسعادة عجيبة كابن قحبة.

أحببت أن أحدثكم عن القيصر الآن وقبل أن أتحول إلى شيء يشبه سكون الأصنام، وإذا صادف وبُعثت من جديد يومًا أكون ساعتها مرتاح الضمير ! وهذا أمر مستبعد جدًا، بل مستحيل، لأن الكايزر لا يموت وبالتالي لا يحتاج لكي يبعث من جديد فهو موجود مادام الوطن موجود؛ طحن الله عظامه ونثرها في الهواء كالنشاء.

أخيرًا أقول مبتهلاً مثل ملاك حقيقي لا ينقصه سوى جناحين : جزانا الله على قدر أعمالنا ونياتنا ووقانا شر الحاسدين ، وألفت انتباه القارئ إلى أن سرد القصة ستكون مسؤوليتنا الأخلاقية والأدبية أمام الله وأمامكم (أقول هذا وأنا أشعر أن صوتي يكاد يكون مخنوقًا وفمي مكممًا) لكن هذا سوف لن يمنعني من مواصلة الحديث معكم...

لم تعلن الساعة عن نفسها الثامنة من صباح القرن الحادي والعشرين ، السبت من عام التوبة ؛ احتلَّ النور العالم من الجهة التي يسكن فيها عبد الخالق ، وركد الظلام مخيمًا في الطرف الآخر منه؛ وما أن كفت رياح الليل عن صفيرها حتى بدأت نسائم الهواء العذبة بالتصفيق بهمس ورقة مثل اصطفاق جناحي ملاك سمائي رحيم ، فنظفت الأرض من أوساخها كربة بيت ماهرة ؛ قرَّر عبد الخالق بعد أن ابتلاه الله بالمرض كما ابتلى سبحانه العراقيين كونهم من العراق ورأس ذنوبهم حبهم لوطنهم... يا لها من جريمة لا تغتفر ! وعقابها كان جماعيًا : شواء العراقيين أمام عيون العالم أجمع في موقد الغربة الكبير المتقد ! ربما يستحق

العراقيون ما يحصل لهم ! لماذا أحبوا وطنهم بهذا القدر ؟! بحق الجحيم أي ملاك أوصى أو اقترح عليهم هذا الحب؟

قلت، قرَّر عبد الخالق بعد أن ابتلاه الله بالمرض وبعد أن أشار له طبيبه الخاص في ألمانيا - حيث يعيش - ضد مرض التهاب الرئة الذي يفرح ديدان الأرض لخبر كهذا للعلاج والنقاهة في إحدى المعسكرات الصحية الراكدة على أعلى قمم جبال الألب القريبة من الله والمحاذية لحدود النمسا والمسماة بقمة الكايزر وكأن القيصر أو الإمبراطور لا يرضى بأقل من هذا الارتفاع حتى لو تعلق الأمر بالتلال والجبال ! ماذا نفعل ؟ علينا أن نقبل ! ولكن الشهادة لله؛ كانت قمة بيضاء تلمع كنطفة الرجل، مطلية بالثلوج، وكما قالوا له ؛ تبقى هكذا صيفًا شتاءً بقدرة واجدها ، لها شكل ملتوي متدرج تجلس على أكتافها الصخور بشموخ وتتسلقها متجهة نحو الأفق العالي كملوية سامراء التي لم يرها إلا في صور الأطلس الذي وزعته الحكومة يومها بقرار من قيصرها مجانًا تحت اسم مجانية التعليم وسلبت من العراقيين بدلاً منه عمرهم ! ماذا يعني هذا لكايزر كان يسمي نفسه الوطن والمجد والأخلاق والشهامة والجمال، وسحقًا؛ لقد نسيت أن أذكر أنه كان يعتبر نفسه مبرر وجودهم ! ومن يتطاول بلسان طويل أو قصير أو حتى بلا لسان ويرفض؛ يعطيه القيصر بدلاً من حياته أطلس جميلاً ملون الأوراق وأملس كالصلعة براقًا ورائعًا وفيه خرائط محافظات القطر العراقي السبعة عشر مجانًا... يا لها من مقايضة خاسرة وخسيسة؛ لقد كان يفعل كل ذلك بشذوذ رهيب وهو يقهقه بعنجهية

كوحش استبد به الشبق وصدره الممتلئ الذي يشبه صدور المرضعات يهتز وتهتز معه جدران القصر ، رافعًا يده اليمنى كالمتسول مرددًا : كيف هذا؟..لقد بات أصدقائي أقل من حراسي!
ثم يبصق على الأرض، وأحيانًا على من كان واقفًا أمامه ويهتف شائطًا : هذا لا يرضي أحدًا... فما بالكم لو كان الكايزر شخصيًا بلحمه وشحمه وعضوه التناسلي يفوق عضو الحصان طولاً وعرضا؟!
ثم يهدهد مترنمًا - ولا أعلم - ربما حزينًا مستهترًا : آه... كم أحب هذا الوطن؟... ويجيب على تساؤله مضيقًا كالنذل : كيف لا وأنا الوطن نفسه!
ثم يصرخ بخبل ووحشية كهتلر عندما كان يخطب، بوجه مكروب وبسحنة كبريتية غامقة أغمق من الهول بلون برازه ومؤخرته تطلق أرياح جهنمية مقلقة تخافها حتى الكلاب السائبة والمحبوسة: أعيش وأحيا أنا!

غفرانك يا رب، ماذا أقول وكيف أصفه؟ رحماك يا رب وأنت القادر على كل شيء..

لقد كان مجرد المشاعر ، شنيعًا كمومس بحارة مرفأ، أفّاق يحاكي الشياطين ويعرف كل حيلهم ويتغلب عليهم بمكره وخبثه وإغوائه، ذئب يمشي على قدمين ، داهية كأنثى القرد ، تواق إلى ممارسة العار ، سفاح بمعنى الكلمة ، لا يهمه في حياته أكثر من صنع الكوارث لما حوله، إبليس بلا رحمة ورذائله لا تريد أن ترتوي أبدًا، خاصة عندما نهق مصرحًا متممًا ما كان داخله يصهل به:

هؤلاء الغرباء (يقصد الشعب العراقي- أبناء الوطن بالعادة) لا يريدون أن يفهموا ، لولا وجودي في سمائهم (على اعتبار أنه الرب) لما ساوى عراقهم بعرة خروف!

ثم يفتح فمه العريض كالتمساح ويضحك بسفاهة قاتلة ، ويهتز صدره مجددًا وتهتز جدران القصر من أساساتها...

لأرجع إلى النقطة التي بدأت فيها كتابة هذه القصة التي أتوقع أن ألقي حتفي بسببها...

ما أن جمع عبد الخالق شجاعته واستحضر جرأته وما تبقى من إرادته؛ عزم بعد تناوله فطور يوم السبت الدسم أن يرفّه عن نفسه بعد أن شعر بأنها موحشة في الأيام الخمسة الأولى من إقامته في المعسكر الصحي (ولا يعرف عبد الخالق بالتحديد نوع الشيطان الذي يوخز عقله كي ينادي المصحة التي يتلقى العلاج فيها بالمعسكر؟ ويظن وقد يوافقه القارئ العراقي هنا أنه لسبب نفسي موجود داخل كل عراقي كوجود الكبد والبنكرياس في جسم الإنسان الطبيعي) ذكرت، أنه أراد أن يرفّه عن نفسه، ولكن قبل أن أتابع سأصف عبد الخالق قليلاً بحكم حبي المجنون للوصف وبلاغة التشبيه الغريبة التي يتصف بها نسل إبليس؛ وأنا على ما اعتقد أحدهم:

تجاوز بطل القصة -الذي يعتبره الآخرون منحدرًا من نسل هابيل- للتو مرحلة الشباب ودخل خريف العمر المحفوف بالتوجس؛ خجول ويقول عن خجله بأنه لا علاج له كمرضه، تمتع بعادات

كثيرة لكنه لم يدمن على إحداها ، فعاش حُرًا ، له وجه يوحي بالغنى والتواضع ، وعينان مبتسمتان برمشين قصيرين يعلوهما حاجبان رُسما بدقة، وجلده يشبه جلد الفقمة ويداه ناعمتان لا تحزر منهما مهنته ، طاهر مثل صفحة بيضاء ، زاهد وبسيط كالماء ، رفيع العود، قليل الأكل، ممسك الكلام، طيب السريرة رحيم القلب لكنه مترع بالألم الصامت، غير مؤذٍ مثل ضحية ولا ينزعج عندما يصف نفسه أو يصفه الآخرون بالسكير والكافر والقاتل، إذ غالبًا ما يرى نفسه النقيض من هذا كله... صبور، وصبره لا يقارع مثل صبر الآلهة، لكن ذاكرته ضعيفة جدًا ولم تنتعش يومًا كصحته، يقول عنها مثل صفحة ماء لا يمكن الكتابة عليها... يسافر إلى أقصى نقطة في العالم وهو مازال في مكانه متسمرًا، حيث يسافر بخياله، وروحه هائمة لا تعرف الاستقرار مثل خياله، لا يحب ولا يحقد، مؤمن بعقيدة فردية قوامها الله وليس دين الأمة التي ينتمي إليها، وغالبًا ما يعيش في عالم غير عالمنا، محبًا للفن وشياطينه...

غادر بوابة المعسكر دون خطة حكيمة مسبقة أو موضوعة من قبل ، كخطط قائد القوات المسلحة العراقية ! سار في الشارع المقابل للبوابة مباشرةً والمتجه نحو الله، أقصد، نحو القمة كسجين هارب وتوقع أن لا يلتقي أو يرى هناك إنسانًا أو حيوانًا ، وسعد لحظتها عندما أحس بهذا الشعور الذي سيجعله وحيدًا مع ربه لنصف نهار على أقل تقدير ، وهام سارحًا مترجلاً كناسك في صحراء وهو يخطو بخطوات سريعة نسى فيها مرضه، وللصدق

والتاريخ العربي المغرم به لصدقه! أقول بوضوح: كانت خطواته واثقة كمن يخرج من قاعة محكمة بعد النطق بحكم البراءة من تهمة كانت خليقة أن تودعه الحبس.. وفجأة صدح في أذنيه صوت المطرب حاتم العراقي وهو يغني موال (الطيب لا وجود له في عالمنا...) فتذكر بأنه كان قد وضع سماعة التسجيل الصغير في أذنيه والذي حمله معه دون تفكير ثم نسيه وتركه يشتغل على هواه دون أن يعي بأنه سيرطن معه بلهجة عراقية عامية دارجة وهو لا يريد أن يسمع أو يتكلم مع أحد ساعتها... فضغط على زر التشغيل وأتى على حسه، فمات الطيب واختفى صوت العراقي!

يا له من صعود رائع (هكذا حدث عبد الخالق نفسه) إذ والحقيقة يجب أن تقال، كان ينهب الأرض بسيره نهبًا، بل يلهبها كالسياط على ظهور الجياد بغية انطلاقها بسرعة جنونية، وهنا لا تنطبق عليه إلا حكمة الروائي العالمي "ماركيز" عندما قال: لا يوجد دواء يشفي ما لا تشفيه السعادة، والطبيعة هي التي عالجتني من أمراضي التي سببها لي الأطباء بأدويتهم.

يتقدم بعنفوان ويحك سطح الأرض بقدميه منتعلاً جزمته ذات الرقبة الطويلة الخاصة لتسلق الجبال وللترحال، والهدف كان واضحًا من سياق القصة: ارتقاء قمة القيصر ثم الوقوف على هامتها المنتصبة الشامخة ليدوسها بجزمته... يا له من حلم لذيذ ومدهش سيصبح واقعًا بعد قليل...

ذكرت أن هامة الكايزر - معذرةً، لكي لا يؤول كلامنا هنا إلى شيء آخر - أقصد، قمة جبل القيصر كانت قريبة من الله... حتى أن عبد الخالق اعتقد بأنه بدأ يسمع أصوات وصلوات وهتافات ودعوات وابتهالات كلما اقترب من القمة لم يسمعها من قبل عندما كان يعيش عند السفح قبل حضوره لتلقي العلاج، وقد فرح كثيرًا بهذه النتيجة دون سبب واضح وربما شعر بحماية الله له بالفعل بحكم قُربه! وكأنه في قلب رحمته وساكن في رحاب ذاكرته الواسعة غير المحدودة التي لا تنسى أحدًا مهما كان جنسه، دينه، لونه أو نوعه وهذه هي بالتأكيد الوصية الحادية عشرة التي نادى بها زازاي (مؤرخ وناسخ عاش في العصر العباسي ويقال بأنه وراء الكثير من النصوص الدينية التي ظهرت مؤخرًا) فسارَ مندفعًا وهو يرفس الأرض ويجعلها خلفه بعد أن انتظمت ضربات قلبه رغم قسوة ومشقة الصعود ولم يستهلك من الهواء إلا أقله وكأنه يتنفس وهو نائم على سرير من الماء، والساعة لم تعلن الثامنة صباحًا بعد، ونسيم الهواء أصبح يميل إلى البرودة شيئًا فشيئًا كلما توغل صعودًا، ولاحظ بأنه قد نسي ارتداء معطفه الأسود المتواضع الذي يشبه الجاكيت التركي إلى حدٍ ما بأزراره الفضية التي تذكره أزراره كلما ارتداه بالدراهم العراقية القديمة؛ لكنه لم يتراجع وقرَّر دون جزء من لحظة تفكير؛ السير قدمًا وحتى الرمق الأخير كجندي عراقي مسكين لا أمل له في النجاة من موت محقق في إحدى معاركهم النضالية الحربية المعتدية دائمًا، فقرر المسكين المضي في طريق الخلاص، وعبد الخالق

الذي يعبد ربه لم يفعل غير هذا ، ثم ضحك بداخله كالطفل لتلك الهواجس السخيفة التي كانت تمر على ذهنه في ساعة مبكرة من صباح سبت مازال نائمًا وهو هائم وكأنه بصحبة كلب يريد الأخير قضاء حاجته في الخلاء بحرية لا يمتلكها العراقيون في بلادهم دون رقابة (وهنا لا أريد أن أفتح موضوعًا شائكًا جديدًا قد يؤخذ علينا مأخذًا) لكن عبد الخالق كان يشعر بإحساس غريب ، وكأن هذا الصباح سيكون فيه نهاية العالم، وكاد حدسه يصدق، حيث ما أن توغل دون هداية -كأسباب الحروب العراقية التي نسينا عددها- نحو القمة ، ممتثلاً لإرادته التي كانت تطوقه كالنير في رقبته (النير هو طوق خشبي يستعمل في الصين قديمًا يطوق فيه رقبة السجين) حتى رأى صبيًا على هيئة عجوز في تقوس هيكله ويحمل على ظهره حدبة وتجعد وجه يشبه حبات الزبيب، بعينين داكنتين متعبتين ضيقتين تبدوان كجرحين في الوجه بلا رموش، يمتطي دراجة هوائية بعجلات ثلاث وقدر سنه نحو السابعة، له رأس بيضوي صغير ، مشدود الجلد كبطن الضفدع ، بأذنين كبيرتين مشعرتين، دقيق وناعم العظام، بأسنان مثلمة تشبه أسنان الرضيع ، له نظرة مثل نظرة الحمل الشارف على الغرق وابتسامته كنظرة عينيه ، فاستغرب عبد الخالق من وجوده غير المتوقع وفي مكان منعزل موحش كحياة العراقي في منافي الغربة! فاستوقفه متسائلاً مشدوهًا بلا شعور كأنه يتوسل بالصبر لإنقاذه ويحاول أن يبحث عن عيني الصبي كي يركز فيهما بنشوة

لاسعة كنشوة اللحظة الأولى من وقوف المرء فجأة تحت شلال ماؤه بارد جدًا:

- هل أنت عراقي؟

بوهن كمن يزن قدر روحه متجاهلاً سؤاله ومضيقًا عينيه تحت حاجبيه:

- وأنت؟

- إي... أنا كالعادة... توقف لبرهة التقط فيها أنفاسه وهو يسر ذاته هاسًا: عونك يا رب يا إله الفقراء... ثم تابع مغمض العينين مجيبًا: أنا عراقي مغترب... وعاد وسأله مباغتًا مثل كبير كهنة الشياطين: لكنك لم تجبني على سؤالي!

رد عليه بنغمة ساحرة حزينة وشجية مثل نغمة الناي تفتت الأكباد:

- وأنا كذلك

- إذن أنت عراقي؟! (قال ذلك بانفعال عاطفي مفتون وبلهجة لا تدل على التصديق كمن يراهن على عظامه، الذهول يملأ عينيه والدهشة تلبس وجهه).

غاضبًا كالروح المتحررة من آثار الشك وبصوت يشبه الصرير:

- أنت إذن لا تفهم!

صارخًا وكأنه يود إيقاظ الموتى من قبورهم:

- بلا، لكني أكاد لا أصدق عيني.

ثم خاطب عبد الخالق نفسه مغمغمًا : (يا مسبب الأسباب يا رب السموات ، كيف تأتي بطفل بهيئة عجوز ، بوجه مجعد كحبات الزبيب ، على دراجة هوائية بعجلات ثلاث وعلى قمة جبل القيصر؟ إنه أمر خارق).

ثم تابع متورطًا:

- هل تسكن هنا؟

برنة ملؤها الوقار والألم كرسول في بدء دعوته:

- كلنا نسكن هناك وحيثما نتعفن خلف هذا الجبل معزولين كبومات تنظر تنام وتنتظر... وهو يشير بسبابته الغليظة الطويلة التي تشبه عضو الذكر المنتصب!

- هناك أين؟ (وهو يمسح المكان بنظره وكأنه صائغ يعاين قطعة ألماس يود شراءها)... ثم غمغم بوجه من يفتقر إلى تعزية أو مواساة: - أنا لا أرى غير فراغ غير منته!

بكلمات بليغة:

- هذا ما عنيته بالضبط... هناك في قلب الفراغ الموحش!

تغير لون عنقه وانتفخ، ازداد احمرارًا محتقنًا وهو يطلق زفيرًا:

- باه... ماذا تقصد؟... ثم مستفسرًا: قلت نسكن، إذن أنتم كثر؟

بروح معذبة وبقلب مكلوم مثقل بالأحزان:

- بالملايين !...وهو يردد مضيقًا بصوت خفيض ورقة: أراح الله روحك وأزاح الهم من قلبك وطرد الوسواس من عقلك.

بمزاج منحرف كسياسي عراقي بلا حياء وكأنه لا يعرف:

- يا رب العباد... بالملايين؟

- نعم بالملايين (وهو يرددها بمرارة لها طعم حساء الضفدع في الفم).

باستغراب متراخي المفاصل:

- الحقيقة أنا لم أعد أفهم شيئًا مما تقوله!

بإيحاء فلسفي:

- كيف أشرح لك الأمر ؟... ثم أردف متخابثًا : أترك لك فهم ما تشاء.

بتهكم ساخر وابتسامة بلا تعبير ترتعش على شفتيه:

- أراك صبيًا حكيمًا.

بجد غاضبًا بعد أن اتقدت عيناه كجمرتين والدم في عروقه يفور كمن فقد صوابه:

- احترم نفسك.

مهتاجًا وهو يرغى ويزبد بعد أن تلاحقت أنفاسه بسرعة جنونية رهيبة وكأن قلبه يؤذن بالانفجار:

- احترم نفسي؟! يا لمسخ الشيطان... ولكن لماذا؟

هاسًا كفيح الأفعى:

- لأنك قلت عني صبيًا، وأنا ليس كذلك!

مجهدًا وهو يردد مع نفسه:

- يقال "إذا تقدم العمر بالشيطان يصبح ناسكًا"... فشعر بأنفاسه أصبحت ثقيلة كأنه يتنفس بزفير فردَ قاصفًا : لست صبيًا ؟! يا لأسرار الله المقدسة... وما تكون يابني إذن ؟... ثم استطرد : أرى أسنانك المثلمة الماثلة أمامي بوضوح والتي وصفتها مذ قليل بأسنان الرضيع وجلدك شفاف مثل جلد الجنين !

متوجعًا وبقسوة لها أثر لدغة الناموس في الوجه:

- هذا لأنك لا ترى ولا تعلم عنا الكثير رغم إدعائك أنك عراقي... وتابع بلغة حكيمة مثل لغة الشيوخ : ما أراده قيصرنا هو هذا بالضبط!

مثل شرير يحب الثأر:

- قيصركم؟!

- نعم، يريد أن يجعل من الكبار صغارًا ليدوسهم ويعذبهم، ومن الصغار كبارًا لكي يدافعوا عنه، يريدهم أن يكبروا سريعًا ليدفع بهم نحو ساحات القتال التي يبنيها بمهارة مثل جلاد متمرس على قطع الرؤوس!... ثم تابع بعد برهة قصيرة: أنا أصلاً في الستين! وإن لم تصدق أحكي لك حكايات لم تعشها وأنت بهذا العمر ولم تلحق عليها بعد!

مرتجف الأطراف:

- في الستين! يا رحمة الله... ثم بشغف : أي حكايات تقصد تلك التي أجهلها؟!

بنظرة قاسية كمن له من الأفضل أن يموت برقت عيناه فجأة وقال:

- حكاية القيصر العراقي، كيف ولد قيصرًا قبل أن يولد، وحكاية حياته الشنيعة، وقصة مماته تلك التي لم يمت فيها فاستمر كايزرًا وما يزال!

منتفخ الأوداج:

- لم يمت! كيف هذا؟ لقد أثرتني بكلامك! أنا رأيته يُشنق عبر شاشات التلفاز والحبل الذي شنق به يشبه حبال مراسي السفن غليظ وقوي... ثم غير من لهجته ونادى متوسلاً كشيطان خانته ذاكرته: أرجوك احكِ لي ما عنيته وقلته للتو، ما حكاية هذا الإمبراطور الذي ولد إمبراطورًا قبل أن يولد؟ أرجوك أنا لا أريد منك سوى سماع تلك الحكاية...

باغته برصانة:

- وتصدق وتعترف بعدها أني لستُ صبيًا؟

برنة ملتهبة وهو يتصنع البكاء مثل رنة ضابط عراقي يعيش على الرشوة:

- دق الله عنقي، سأفعل طبعًا، أصدق وأعترف بجهلي (قال ذلك وهو يصلب يديه على صدره)... وتابع: ولكن أرجوك احكِ لي القصة منذ البداية، ولتنزل على رأسي لعنة السماء وأكون بعدها راضيًا.

- همّ... حسنًا، سأروي لك الحكاية ومنذ البداية:

يقال إن صفاء العين من صفاء الروح، وعيناه لم تكونا صافيتين ويبدو وكأنه من قوم سالومة، أرعن ولا يستطيع أن يقسم الشعير

بين حمارين كما يقال ، ضحكته شرسة وفي عمق دعارته التي تشبه ذوقه لا تجد رواسب خلق كريم... ولد الكايزر العراقي قيصرًا قبل أن يولد ، العرافة قالت لأمه ذلك ، لأن أباه لم يكن موجودًا أو معروفًا ! كان كبيرًا طويلاً مثل عملاق ، أسطواني القامة برأس يشبه القبعة المكسيكية ، فبدا لنا مثل الحقنة الشرجية الكبيرة ، لا يمكن تحديد عمرها ، معذرةً ، أقصد لا يمكن تحديد عمره، وكانت هذه مأساتنا ، حيث لم نستطع معرفه عمره الحقيقي، هناك من قال عمره مائة وخمسون ، وآخرون قالوا وهم يقسمون بأغلظ الأيمان على أنه لم يتجاوز المائة والعشرين والقسم الثالث أشاروا بأنهم ليسوا متأكدين وعمره يتراوح بين التسعين والسبعين ثم يذكرون أخبارًا عن ذويهم ويقولون مبالغين في تقديرهم : إنه ولد قبل أن تبنى العاصمة ، حيث ولدوا ورأوه موجودًا حاكمًا قيصرًا على سن الرمح ! وهذا ما يسمى في عرفنا العهد البائد الحاضر...

قاطعه عبد الخالق معترضًا سائلاً بحماقة وهو يمد لسانه كلسان المشنوق:

- العهد البائد الحاضر ؟! ماذا تعني بذلك؟

بتواضع مستسلمًا لبلاهة السائل:

- أعني أنه عصر عباسي متواصل ومستمر ، طويل كعمر السلحفاة... بلع ريقه وتابع : أزيدك علمًا ، أن القيصر لم يمت كما قلت مذ قليل وتوهم للعالم!

كمن يئن من اليأس:
- ماذا... لم يمت؟! كيف ذلك؟ قلت لك رأيته عبر وسائل الإعلام يُشنق بحبل غليظ كحبل مرساة السفن، ثم معلقًا والحياة قد فارقته دون رجعة...
أراد أن يستمر شارحًا فتدخل الصبي محتدًا:
- لم يكن هو القيصر الحقيقي الذي شنق، إنه شبيهه، لقد كان الكايزر ابن زانية، يعرف نفسه، ويعرف أنه سيعمر كأنه يريد أن يصبح أطول من عمر الله، لقد كان - أباد الله نسله - جلادًا متمرسًا حقيرًا، وإذن فقيصرنا مازال موجودًا يحكم ولا يمكن له أن يموت إلا بموت الوطن!... ثم أشار مغتاظًا وبيقين مرعب وهو يتحسس الأرض الواقف عليها: لا تقاطعني أرجوك... وأردف: كانوا يفعلون أفعالهم في غرف كاتمة للصوت!
قاطعه عبد الخالق مرة أخرى مقأقأ كدجاجة تبيض:
- غرف كاتمة الصوت!
استطرد الصبي العجوز كشاعر يتلقى إلهامه من وحي دون أن يعير لتدخله أدنى اهتمام:
- كانوا يعطون الأمان لسجناء الفكر ويقولون لهم بحنية: افعلوا ما شئتم، ثم يؤكدون على الكلمة الأخيرة (ما شئتم) على أن لا تقربوا حدود الكايزر، ثم يرسمون على الأرض دائرة تمثل حدوده، وكانت والشهادة لله صغيرة بحجم فتحة مؤخرته تقريبًا، ثم يكتبون على حوافها أربعة حروف من يقرأها يفهم مباشرةً أنها تمثل

اتجاهات الكون الأربعة كأنها بوصلة ، لكنهم يطمئنونهم وكأن العراقيين أطفال سذج مغتاظون: لا نقصد هنا الكون كله رغم أن طموحنا هو ذاك ، لكننا نعني الوطن كله فقط !... ويستطردون بتبجح شيطاني دنيء: هذه هي حدود الكايزر وعليكم عدم التقرب منها لأنها حدود شرعية ورثها عن جده الخمسين وإلى أبد الآبدين... ويتابعون محتدين كغربان قادمة من الجحيم : ومن يعترض نأخذه هناك...

فقاطعه عبد الخالق من جديد مأخوذ متلهف كحديث العهد بالزواج:

- هناك إلى أين؟!

لكن الصبي استمر وكأنه لم يسمعه:

- حيث غرف كاتمة للصوت، ويجعلونه ينبطح على بطنه كوضع الرماية ويمارسون اللواط معه من الفجر وحتى الفجر!

صرخ صاحبنا غير مصدق:

- يا مسبب الأسباب... كيف هذا؟!

- قلت لك لا تقاطعني

ثم استطرد بحماس متابعًا:

- ماذا أقول لك؟ كان يقول: لا أريد من الشعب شيئًا سوى الطاعة والانحناء والسجود كخدم الملوك! ثم يرد على أمنيته ساخرًا جادًا: وهل هذا كثير عليّ ؟! لقد أمر يومًا بهدم دار أكاديمية الفنون الجميلة لأنه قال عنها: دار الفنون القبيحة الداعرة التي تمثل عمل القحبة التي لا تعرف في حياتها إلا تكرار نفس أدائها ! فقرر

بمرسوم لم يكتبه ، لأنه ما كان يعرف القراءة والكتابة ، فألقاه ارتجاليًا وهو يدق على كرشه مثل أنثى الغوريلا كما في كل مرة.. فتم هدم الأكاديمية ، وأمر ببناء وزارة بدلاً عنها أسماها وزارة الهجوم الحربية التي من أقدس مهامها : غدر الصديق في الظهر ، ونهب الجار في غيابه ، وفض بكارة الصبايا عندما يستحممن ويغتسلن قبيل الصلاة !... كما أنه أعطى أوامره بقتل كل الكلاب ، لأنه يقول عنها سبب بؤسه وتكدره وأنها تقلقه ساعات راحته ، يا الله ، كل الذين التقوا به أكدوا : كانت تفور منه رائحة مقززة مثل رائحة نهر فائض...

عندها توقف الصبي عن الحديث ، سرح في خيال بعيد متجهمًا ، خافضًا بصره نحو الأرض وارتسمت على محياه صور قاسية أليمة رآها ملطخة بالدماء ، فسأله عبد الخالق متوسلاً راجيًا أن يكمل وهما مازالا واقفين في عرض الطريق الجبلي...

رفع الطفل العجوز رأسه نحو السماء مهمومًا وتابع:
- ماذا أقول ؟ لقد كان لثورنا رغبات وهوايات موسوسة ، فتارة يطلب قتل الكلاب كما قلت ، وأخرى يحرم الغناء وقت العصاري ، وفي مرة صرح: أنا أعرف قدري من بقايا قهوتي ومن باطن يدي سأعيش إلى الأبد ، ولا توجد قوة في العالم تمنعني من ممارسة حقي الطبيعي في الحكم والحياة... وهو يزعق ناهقًا كصيحة قرصان أعور وهو يقصد العراقيين : سأرجعكم كما وضعتكم أمهاتكم عراة يا أبناء الحضارة الأولى !... لقد أتى على كل شيء

كسرب الجراد والإعصار ، وفي مرة حلم فيها في قيلولة الظهر وقام من نومه مرعوبًا وخطب فينا صاخبًا كصخب المتزوج في حالة نزوة وبصوت يشبه صوت الماء الخارج من مجرى محشور: لا تلبسوا في احتفالاتي المئوية غير ثياب الجثث البالية! ويعقب على كلامه قائلاً: لأنكم هكذا تجعلونني أموت من الضحك وهذا أمر يسليني كثيرًا ويجعل لعابي يفرز أكثر وهو أمر صحي جدًا !... ولكن في إحدى خطاباته الطويلة نسى نفسه فيها وأمر برعونة ساحقة كعاداته المزمنة وفي لحظة طيش - وما أكثر سنوات طيشه - بقلع عقارب ساعات العراق كلها ؛ العاملة والعاطلة؛ فضاع علينا الحس بالوقت وصعب على العراقيين من حساب الزمن... وبعد فترة - لا يعلم الشيطان مُدتها - شعر الكايزر الضرورة ومبرر وجودنا في الحياة - كما يدعي - وهو منبطح على بطنه يظرط وبحضور خمس من عشيقاته السريات اللاتي كن يجلسن على بدنه الممدود كما تجلس الحروف الأربعة في البوصلة والخامسة بعجيزتها العارية على ظهره كنوع من أنواع التدليك التايلندي... قلت: شعر ابن الزانية الذي لا يريد أن يصدق على أنه ابن زانية بأن الساعات هكذا وهن عاريات دون عقارب تتحرك مملة! فأمر بقطع رأس كل من نفذ قراره الخائب وأعطى إيعازه بتعليق وترجيع عقارب الثواني فقط إلى الساعات مجددًا كي تبدو الأخيرات أجمل ، وللتاريخ والحقيقة لله كان هذا أول وآخر أمر رئاسي يصدره الكايزر ثم يتراجع فيه متابعًا ناهقًا وهو على بطنه منبطحًا وعشيقته الخامسة عارية بعجيزتها الكبيرة

تتحرك لاستكمال مراسيم التدليك وهو في حالة سُكر شديد في شبه غيبوبة: على شرط أن تجعلوا عقارب الثواني تسير إلى الوراء كالساعات البفارية وأن لا تتقدم لأنني الوحيد على أرض الوطن من يحق له التقدم !... فغرق العراق منذ لحظتها بفراغ زمني مروع هائل مخيف مغلق ومتوتر وكأننا نعيش بلا جاذبية على الأرض، ولم نعد نعرف كم استمر القيصر في حكمه، فنهب زمن العراق وأصبح مثل حفرة كبيرة كجبل في الظلام، لصعوبة تحديد أو حساب الزمن، فلم يعد يعرف زمن حكم القيصر وهل هي فترة واقعة بين ولادته الثانية أو العاشرة أو إلى جحيم الآبدين ؟!... ولأنه كذلك قال يومًا متبجحًا مختالاً كالطاووس في لحظات تجليه وغطرسته كافرًا: أنا رب والرب لا يموت!

ثم انحدرت من محجري الصبي دمعة كبيرة طالما رآها جامدة في مكانها لا تريد أن تنزلق أو تعبر عن نفسها، لكنها سقطت فشربها وهي ملتهبة كقطرة بول حارة...

وفي هذه اللحظة سمعا صوتًا من بعيد ينادي على الصبي ويقول بنبرة مهزوزة كمن يشعر بالحُمى:

- أين أنت يا بُني؟ ماذا تفعل عندك؟! ها... ومن هذا الذي يقف بجانبك؟

سأله عبد لخالق مندهشًا:

- ومن يكون هذا؟

- إنه أبي!

- ماذا؟ أبوك!

- نعم.

- لكنه يبدو أصغر منك، وسنه لا يتعدى الخامسة!

- عليك أن تصدقني، القيصر لا يريد أي مخلوق أكبر منه، فجعل الرجال صغارًا ، وأبي أحد هؤلاء الضحايا... وهو يشير له بأصبعه الغليظة اللعينة التي تشبه النقانق المشوية.. انظر إليه، إنه تجاوز التسعين وهو على هذا الحال!

وما أن غادره الصبي ملبيًا نداء ورجاء أبيه حتى أخذ معه قلب عبد الخالق دون أن يجعله يعلم بعدها تردد على مسامعه صوت مدوي في آفاق الجبل مرتدًا كصدى زئير الأسود الغاضبة:

- "لقد تناسى الكايزر الرهيب، إذا كان زمن حياته على الأرض لن يكفيه ، فإن الخلود لن يكفيه أيضًا ؛ شوي الله عظامه على القار... وانتهى الصدى مرددًا، متى تهنأ حياتنا التعسة؟! متى؟!"

أطرق عبد الخالق مفكرًا خافضًا رأسه على صدره مثل المشنوق، بكى بصمت مهمومًا مثل الشموع وهي تذوب محترقة...

وهذا كان أخر عهد لقائه بالطفل العراقي العجوز ؛ حيث ما أن اختفى الصبي وراء الجبل كالضباب والسراب ، وما أن سمع الصدى المدوي سرح طويلاً ولم ينطق بشيء وشعر برغبة جامحة تدفعه دون إرادة للذهاب خلفه، وعلى أقل تقدير لاسترداد قلبه الذي تركه عنده... ثم بلا شعور مشى وعلى غير هدى سار وكان على يقين أن مسيره كان صائبًا ويد خفية تدفعه للتقدم

والبحث خلف الجبل حيث الفراغ الموحش الذي أشار له الطفل من قبل...

وأثناء سيره شعر بضيق تنفسه، جاءته النوبة الصدرية، ارتجف مثل شبح بلباس أسود، أزرق وجهه، اختنق، ترنح، سقط، قام، مشى، تراجع، تقدم، واصل، وصل، مات، عاش، مات ولم يعرف له فيما بعد من أثر ولم يسمع عنه خبر... وكل الذي قيل عنه: انتحر، وقيل أن آخرين شاهدوه يلتقي بعائلة الصبي خلف الجبل، لكن أكثر من هذا لا أحد يعرف أو يجزم بقول أو قسم ولا حتى كاتب القصة...

وبات العراقي يعيش على الوقار والكبرياء كالميت في مجاهل ومتاهات الغربة حول العالم، وعلى حلم يشبه معالم الخلود الذي لا يمكن الوصول إليه إلا بالمرور عبر طريق الموت أولاً!

• • • •

لم يدع قاضي التحقيق المخول الوحيد يومها في البت بأمر لجوء آدم وزوجته يكمل سرد قصة الكايزر التي بدأها بطلب منه ويترجمها بشكل فوري مترجم مصري محلف بوجود المحامي الشاطر المعروف محليًا "هاين هولد" لذكائه وسرعة بديهيته ونشاطه اللافت في حقوق الإنسان بالإضافة إلى تخصصه في قضايا اللجوء ليس في مدينة ميونخ فحسب بل كانت سمعته طيبة كسمعة الياسمين في مناطق ومدن ألمانية كثيرة، كان الأخير

يستمع للقصة مأخوذ اللب، يهز رأسه، وشارباه القرويان الكبيران يهتزان لكل حركة يأتي بها من رأسه، حتى نطق القاضي حاسمًا السرد مكتفيًا بما سمعه:

- توقف، الكلام واضح ومباشر، تستحق عليه الحماية، نقبل بكما لاجئين سياسيين على أراضينا ونوفر لكما كل مستلزمات العيش الكريم.

ثم صاح بصوت رفيع:

- رُفعت الجلسة.

أغلق الملف الذي أمامه وظل صامتًا ينتظر ما سيترجمه المترجم حتى يغادر القاعة. ترجم الأخير ما سمعه...

شعر كل من آدم وأنهر بزهو وارتياح عميق... ضحك المحامي الطيب الذي كان يعرف القاضي معرفة شخصية بحكم تواجده المستمر في غرف المحكمة التي لا شغل لها غير البت في قضايا اللجوء في مقاطعة "بافاريا "جنوب ألمانيا. قام القاضي بإشارة منه بأن يترك الآخرين الغرفة... همس المحامي لهما بضع كلمات، شكر آدم القاضي بكلمات مقتضبة جدًا، كذلك فعلت أنهر، ثم صافحا المحامي خارج القاعة وهما يعبران عن امتنانهما الخالص له.

(١٦)

أقسى شيء في الحياة عندما يحاول الإنسان أن يتحرر من فكرة ثابتة مغروسة في ذهنه بحكم الوراثة أو الجهل !
لتبقى مشكلة البشر عقولهم ، فهي التي تبرِّر كل أفعالهم ، الدنيئة منها أو البريئة ؛ حسب أهوائهم

بنزقٍ قرَّر كمال الزواج من نادين دون تردد، بل ظل الوقت كله يدافع عن وجهة نظرها بشأن ما يتعلق بطفلهما الموعود حتى تمادى في رغبته فطلب من أخته وزوجها أن يشهدا على زواجه أمام القاضي في دائرة الزواج.

حاولت أنهر بشتى الطرق إقناع أخيها بالعدول عن قراره دون فائدة فرضخت لرغبته... وعندما حان يوم الشهادة حضر كل من آدم وزوجته في المكان المحدد، وتمَّ الزواج في صمتٍ عجيب لا يتناسب وحدث كهذا !... فكل الذي حصل هو سؤال القاضي أنهر وآدم عن أصل كمال، وبعد الإجابة اتجه بسؤاله لكمال ونادين عن رغبتهما في القبول، وما أن سمع قرار موافقتهما أعلنهما زوجين، وقَّع الحضور على محضر الزواج وانتهى الأمر !

كمال لم يستطع إقامة احتفالية لزواجه، هو لا يملك غير بعض الماركات في جيبه لا تكفيه حق الطعام لمدة شهر، وزوجته كانت

مثله أنفها في التراب كما يقال أدقع منه، استأجرا غرفة على حافة مركز المدينة عتيقة تخافها العفاريت في سطح إحدى البنايات المتهالكة وصاحبتها امرأة عجوز شمطاء متطرفة الأفكار لا تحب غير نفسها، وافقت عليهما لأن سكنها لا يصلح للسكن! غير أن لباقة نادين وهي ابنة البلد استطاعت إقناع الشمطاء بطريقة أو بأخرى حتى تم توقيع عقد إيجار غرفة السطح.

كانت أنهر وقتها منهارة، تعرف ما سيحدث لأخيها دون حاجتها لأحد أن يقول لها، حَمْل نادين لم يكن صادقًا، كان مجرد خدعة للإمساك بذيل كمال ثم إقناعه بالزواج منها... ما كان يرعب أنهر هو أن نادين كانت تعرف أكثر من شخص قبل أن يظهر كمال في حياتها، الأخير كان ينكر بشدة هذه الأقاويل، يعتبرها حجة للنيل من زوجته، المسألة لا تحتاج إلى كثير من نباهة، هي التي حدثت أنهر بعلاقاتها السابقة في جلسة سمر، الفتاة الأوربية لا تخجل من ذكر ذلك، تعتبرها أمورًا طبيعية كشرب الماء، كمال كان يعرف هذا وينكر!، ذكورته الشرقية تمنعه من التصديق أو القبول بالأمر الواقع حتى لو كان حقيقة ناصعة كقرص الشمس!... لو اختلف الأمر هنا والفتاة كانت شرقية لقامت القيامة، لطعنت العائلة كلها بشرفها، ثم تتمرغ الفتاة في وحل الخطيئة لأنها جازفت بسمعتها وأعطت نفسها قبل زواجها، ولو اُكتشف أمرها أثناء الزواج تُهدد بالقتل أو النبذ وتعتبر قحبة تستحق الرجم لا يقربها الذكر الشرقي - الشريف - الذي لم يأتِ بإثم ولم يفعل فعلها قبل زواجه!... هذه

الازدواجية سبب مصائبنا كلها، نعرف ونحرِّف، نقول ولا نفعل، نثني ونطري ونحن غير مقتنعين، نضحك من ظهرنا، نخون ونرفض الخيانة، نكذب ونسرق ونشهد زورًا ثم ننهي عن المنكر. يا ويلنا من ساعة الحساب، متى نتذكرها؟!

• • • •

ما أن استلما جوازهما السياسي الأزرق الملطخ بُجملة لا يمكن تمريرها بسهولة دون ألم يحز النفس، أو جرح يدمي القلب على أشخاص بمواصفات أنهر وآدم، تقول (يمكن لحامل هذه الوثيقة أن يزور كل دول العالم ما عدا العراق) حتى تفاجأوا برسالة من بلدية المدينة تعلن لهما عن وجود سكن شاغر في منطقة تُدعى "بيرلاخ القديمة" واقعة جنوب، ميونخ تتكون الشقة من غرفة ونصف في طابق أرضي لبناية حديثة البناء لا يسكنها غير الأجانب الحاصلين على جوازات سياسية أو إنسانية كحالة صديقينا مع حديقة صغيرة كعش العصافير تواجه الغرفة المعدة للنوم والجلوس، وتدعوهما لزيارة الشقة ومعاينتها ثم البت في أمرها...

خبر كهذا أمنية في الغربة؛ خاصة في الظروف التي يعيشها صديقانا، فسكنهما الخشبي كان شديد البرودة شتاءً مهلك صيفًا؛ الأصوات المتداخلة والضجيج الذي لا ينقطع والحمامات المشتركة التي تجلب السكتة، وإن لم تكن كذلك فهي كفيلة بأن

تصيب المرء بكآبة مزمنة، كل ذلك جعل الخبر يقع على قلبيهما وقوع الماء البارد النازل من شلال على رأسيهما في ليلة صيف شديدة الحرارة.

شدًّا عزمهما واتجها نحو العنوان الموجود في وسط الرسالة التي وصلتهما من بلدية المدينة حيث الشقة الموعودة؛ وجداها لا تبعد كثيرًا عن محطة القطار رقم اثنان المتجهة نحو جنوب المدينة والتي تدعى" بيرلاخ القديمة "، المنطقة هادئة، تبدو عليها سيماء الرفاهية، تقسمها سكة الحديد قسمين، ونهر يجري في وسطها تظلله وتحيطه الأشجار، تطل البناية على الشارع العام وأمامها حديقة متواضعة بأشجار مازالت فتية زُرعت لتوها... المسؤول في مكتب تنظيم إدارة البناية رحب بهما بشكل ملفت خاصة بعد أن عرف بأنهما قادمان من بلد الطاعون، والحرب عندهما في أشدها.

كانت الشقة لطيفة، جميلة، ونظيفة رغم صغرها، المطبخ نحو اليمين يأتي بعده الحمام والمرحاض، يقابله غرفة واسعة معدة للنوم والجلوس وبجانبها قبو صغير لا تتعدى مساحته المتر مربع.

لا يُعاب على هذه البناية غير مسألة البريد الذي لا يصل مباشرة للساكنين، بل يبقى في حوزة مكتب موجود في مقدمة البناية يعمل على تنظيم أموره طاقم شبابي لطيف لا يعرف من الحياة غير مُتعها، وهناك يتم تسليم الساكنين رسائلهم، وهذا الأمر لم يزعج أنهر ولا آدم مطلقًا... وبهذا كانت هذه الشقة أول سكن خاص يحويهما بعد عذاب واختلاط جبري غير إنساني دام عامًا كاملاً.

قبول لجوئهما السياسي كان بمثابة ملاك الرحمة لهما ، فما أن انتظمت حياتهما في شقتهما الجديدة الصغيرة حتى وصلتهما دعوة من قبل دائرة العمل بلزوم دراسة اللغة الألمانية لمدة ستة أشهر على حساب الدولة في كل المواد يوميًا ثماني ساعات ولهما مطلق الحرية في اختيار المعهد الذي يدرسان فيه. كانت الأنظار تروم حول معهد "غوته" العريق ، الواقع في وسط المدينة في شارع "الشمس" ، لكن حمل أنهر بطفلها الأول جعلها تؤجل فكرة التحاقها ودراستها حتى ولادتها ، فالتحق آدم بالمعهد وعيناه تترقبان ساعة قدوم الطفل الموعود.

• • • •

كل شيء تجده في بلد الطاعون إلا الإنسان السليم!

فبعد أن حرّن الكايزر ورفض الانسحاب أولاً ثم وافق على مضض بطريقة رعناء لا يفعلها مجنون ، كانت النهاية الحقيقية لأي مسار يجعل الشعب في أمان ، فحلَّ الرعب والدمار ، وكان الانهيار فساد أرض الرافدين الظلام...

في هذه الأثناء اتصل آدم بأهله بعد انقطاع دام شهورًا لا يعرف ماذا حل بهم، فوصله صوت أمه وهي تتوسل به:

- ساعدنا يا بني، أخوك مروان في رومانيا لوحده، هو لم يستطع أن يأخذ زوجته وأولاده معه، الظروف قد تغيرت بسرعة رهيبة، لا حياة بعد الآن، سافر أخوك الآخر مجيد إلى الأردن، بعدها لم

نعرف عنه شيئًا ، لقد تطشرنا يا ولدي ، كل فرد منا في وطن ، الكل يريد الهروب ، ينفد بجلده ، لقد أخطأتُ عندما عارضت سفركما أنت وأنهر ، أعذر حبي وخوفي ! ، الأخير أتنازل عنه اليوم من أجلكم، لا تقصر معنا ، لمّ شملنا ، حاول أن تعرف عن مجيد شيئًا ، أخبرنا بشأنه ، لا تجعل قلبي يأكلني عليه ، مروان يقول بأنه بخير لكنه يبكي فراقنا وفراق زوجته وأولاده، عنده حق الفراق مُرٌّ كالمرض وربما ألعن ، ماذا أقول ، يكفيك ما تعاني... هل أنهر بخير ؟ أعطني إياها ، أحب سماع صوتها ، هي الوحيدة التي تجعلني أشعر بالأمان رغم كل ما يحصل هنا...

تحدثت أنهر مع خالتها أم آدم والأخير يتذكر الجملة المكتوبة في جواز سفره وهو يشعر بالخزي والقهر "يمكن لحامل هذه الوثيقة أن يزور كل دول العالم ما عدا العراق".

• • • •

ساعة ولادة أنهر كانت غريبة وعجيبة؛ إذ كانا يومها في رحلة مع مجموعة من العائلات من أصول ألمانية هربوا أثناء الحرب العالمية ثم عادوا بعد أكثر من نصف قرن إلى بلدهم، أبناؤهم لا يتحدثون لغة الأم ، يحاولون جاهدين أن يعيشوا حياتهم بشكل طبيعي بالتدرج للتأقلم في وطن آبائهم وأجدادهم، واليوم هم في رحلة مع أنهر وآدم على جبال الألب الشهيرة بصحبة مسؤول ألماني يدعى هلموت يعمل في تنظيم حياة هؤلاء محاولة من

الدولة أن يسترجعوا ثقتهم بدولتهم ولتعويضهم عن آلامهم وعذابهم وما لحق بهم وربما عما فاتهم... كان يوم جمعة ، انطلقوا من مركز مدينة ميونخ في العاشرة صباحًا، كانت دعوة أنهر وزوجها صدفة ، حيث يعمل هلموت في نفس البناية التي يسكن فيها المترجم الكردي فرياد ، ومن خلال الأخير تم دعوة صديقينا... وصلوا بعد الظهر الفندق الجميل الكبير الواقف على خاصرة جبل ويطل على بحيرة واسعة، مياهها تشبه الزمرد، تفصل ألمانيا عن سويسرا تسمى "بحيرة الأرض" في وسطها جزيرة تضم أغرب نباتات العالم وبكل أنواعها... وما أن تم تسليم غرفهم واستقروا بها حتى ناداهم هلموت لتناول طعام الغداء رغم تجاوز الساعة الثانية ظهرًا... وقتها أخبرهم ببرنامج يومهم المتبقي وكان عبارة عن شقين غير ملزمين، الأول مشاهدة فيلم "الفراشة" لستيف ماكوين، أو الخروج في نزهة عبر غابات المنطقة المسكونة بالصمت ثم تناول العشاء في السابعة. كان قرار آدم وأنهر مشاهدة الفيلم بشكل جماعي لشعورهما بالإرهاق نتيجة الرحلة خاصة وأن أنهر في أسابيعها الأخيرة من حملها حسب قول طبيبها النسائي المختص، لكن الأمر لم يكن كذلك البتة، فما أن شاهدا الفيلم وتناولا العشاء ذهبا إلى غرفتهما على موعد لقاء المجموعة صباحًا في التاسعة للفطور ثم الذهاب لزيارة متحف المدينة التاريخي بصحبة المجموعة كلها؛ هذا كان برنامج يوم السبت قبل الظهر، لكنه لم يستمر الحال كما تم التخطيط له، حيث وعند منتصف الليل بدأت أنهر تشعر بأوجاع مبرحة في بطنها، لازمت الحمام، آدم شغل

باله، لا يعرف كيف يتصرف، يسأل زوجته، تجيبه متألمة: لا أعرف... ثم زادت أوجاعها مما جعل آدم يهم فارًّا يطلب المساعدة من هلموت الذي كان رجلاً طيبًا جدًا ودودًا يحب خدمة الآخرين وتلبية رغباتهم بشكل ملفت للانتباه، يجيد الإنجليزية، وهذا ما شجَّع آدم للتوجه إليه طالبًا مساعدته...

ما أن سمع المسؤول ما تعانيه أنهر حتى اتصل من فوره بالإسعاف، لحظات وكان الفريق الطبي حولها، أكدوا قُرب ولادتها، المسألة تعقدت كثيرًا، هي لم تحسب حسابها، لم تحضِّر نفسها لهكذا مفاجأة، نقلوها لمستشفى المدينة، آدم ظل معها وهلموت لم يتركهما... وفي الساعات المبكرة من صباح السبت سمعوا صراخ الوليد يعلن عن قدومه للحياة بصرخة، هرع كل من آدم وهلموت إلى غرفة العمليات، دخلا، وجدا أنهر معروقة كأنها أخذت للتو دشًا، تقدم منها زوجها، انحنى عليها، قبّل جبينها، أعتذر من عدم تمكنه من حضور الولادة، قال: نفسي لم تطاوعني، لا أستطيع أن أرى شخصًا يتألم، فكيف والحال بأن الشخص هو أنتِ؟ لا يمكن المجازفة طبعًا... ثم شخصت نظراته على المولود الذي يبكي متكئًا على صدرها وهي مازالت مستلقية على السرير الطبي الخاص للعمليات، قالت مازحة بمكر:

- ماذا، ألا تريد أن تقبِّل ابنتك؟

تسمَّر في مكانه، تحرك ضميره، شرع:

- رائعة الجمال مثل أمها...

- كذبت عليك؟

- ماذا تقصدين؟

- إنه ابنك يا آدم... تابعت بحنية صافية: ماذا ستسميه؟ لقد سألتني الممرضة وتحيرتُ في إجابتها، فكما تعلم نحن لم نحضر أنفسنا لهذه المفاجأة.

رنَّ صوت هلموت في الغرفة ضاحكًا، حضن آدم يبارك له وهو يردد ببراءة مازحًا بعد أن فهم بحدسه ما أشارت له أنهر:

- ها... ماذا ستطلق عليه من اسم ؟... ثم أردف دون لحظة توقف: ستسميه على اسمي، هلموت أليس كذلك؟

جادًا:

- لا، أعتذر منك، سأسميه الفرزدق...

استغرب المسؤول من الاسم، قال:

- اسم غريب، ماذا يعني؟

- إنه شاعر من بلدي، لُقب بالفرزدق لأن وجهه يشبه رغيف الخبز، كان شاعرًا كبيرًا، له مآثر أدبية لا يمكن للتاريخ تجاهلها دون ذكرها...

قاطعه هلموت بأدب:

- أمزح معك، لا تأخذ الأمور كلها بهذه الجدية، الفرزدق اسم جميل، يكفي بأنه متفرد ومميز، أنا شخصيًا لم أسمع به من قبل، وربما لن يكون لغير ابنك هذا الاسم، يعني سيكون استثناءً... طبطب على كتفه، قال لأنهر كلمات تشجعها بعد أن بارك لها هي

الأخرى، ثم اختفى للحظة بعدها عاد ومعه باقة ورد رائعة وسلمها لأنهر متمنيًا سلامتها وأن لا تشغل بالها بأمر رجوعها إلى ميونخ مع زوجها، دقَّ صدره بيده كما يفعل الشرقيون غالبًا، قال:

- أعدكما بذلك ، أنتم أمانة في عنقي ، أقول أنتم لأنكم أصبحت ثلاثة ، قهقهة ، أضاف : حتى تصلون بيتكم سالمين ، معززين مكرمين والنفقات لا تحملوا لها همًّا، ستتولى الإدارة التي أعمل فيها تسديد كل المتعلقات والنفقات.

ثم غادرهم نحو الفندق يسر المجموعة لطمأنتهم وتهيئة أنفسهم لزيارة أنهر وابنها قبل التوجه إلى متحف المدينة كما خطط له رغم التأخير الحاصل..

• • • •

وفاة كريم المفاجئة وهو في عز شبابه أثبتت بأن العرّاف وجه الغراب كان على حق عندما قرأ كف آدم الأيسر وقتما كانوا جالسين في مقهى على كورنيش دجلة في شارع "أبو نؤاس" قبل هروبهم من بلد الطاعون مما غيَّر الحدث مجرى حياتهم وجعلها أقرب إلى القلق والتوتر منه إلى الاسترخاء والراحة.

اتصال الشرطة بكمال وإبلاغه بخبر وفاة أخيه بعد ثلاثة أيام من رحيله أمر مجلجل ، ليس طبيعيًا ، يحفز على الإصابة بالسكتة. الأدهى حالة وفاته، فهو لم يمت ميتة طبيعية، بل قتل على يد لص من أصل يوغسلافي كان في حالة سُكر شديد، ولم تعرف الشرطة

بالحادث إلا بعد مرور ثلاثة أيام وبالصدفة، فقد قلقت صديقته كاترين عليه وانقطعت فجأة زياراته أرادت أن تتأكد من أنه بخير وليس مريضًا وربما يحتاج إلى رعاية أو مساعدة، ذهبت إلى شقته، ضغطت زر الجرس، طرقت الباب، حاولت مرارًا بلا أدنى نجاح، قلقت عليه، حاولت أن تسأل الجيران، أكدوا اختفاءه منذ ثلاثة أيام، اتصلت بصاحب السكن، وما أن فتحوا الباب حتى وجوده مضرجًا بدمائه والشقة في فوضى عارمة دليل المقاومة وحالة السرقة...

كان لوفاة كريم وبهذه الطريقة الشنيعة أثرٌ بالغ القسوة على أنهر وزوجها، لم يصدقوا ما حصل، ظلت أنهر لأسابيع منزوية، منطوية عازفة عن الكلام، يزداد ألمها وتوترها كلما تذكرت قول العراف بأن هناك شابًا قريبًا من كمال سيموت ثم يلحقه أمه وأبوه! وها هي أولى تنبؤاته تتحقق، الأمر الذي جعل كمال يعجل في قرار هروبه من جديد، تركه ألمانيا كان كل ما يفكر به في الآونة الأخيرة، شجعته زوجته نادين، وكانت وجهتهما نيوزلندا...

(١٧)

الماضي لن يكون مرغوبًا إذا سعى لتسيير الحياة الآتية ،
الثقة بالغايات تحقق المعجزات ،
وإن رأيت شخصًا واضحًا فأعلم بأنه ناضج.

بعد ستة وعشرين عامًا من الغربة...

التقت أنهر صدفة في مدينتهما الجميلة "باد فيرسهوفن البافارية" التي تعمل وتسكن فيها منذ قرابة خمس سنوات بعدما أتعبها صخب الواحد والعشرين سنة التي عاشتها في مدينة ميونخ ، فوجدت ضالتها في تلك المدينة الهادئة الغافية على أكتاف الجبال الألبوية بقممها ناصعة البياض في الشتاء كالقطن بعد أن هربت من بلد الطاعون بصحبة زوجها قبيل حرب الخليج الأولى...

مدينتهما الصغيرة تلك مثل قرية سياحية ، يشقها جدول رقراق ساحر إلى نصفين ، تنتشر فيها عيون المياه المعدنية في كل مكان كتواجد الأشجار ، والينابيع تلك يمكن استخدامها مجانًا ؛ تقع في الجنوب الغربي من ألمانيا ، محاذية لسلسلة جبال الألب الشهيرة العملاقة ، اتخذت المدينة سمعتها وانتشرت لأغراض العلاج الطبيعي ضد أمراض الجلد والعظام ، تلك الطرق الطبيعية للعلاج اكتشفها الكاهن "سبستيان كنايب" في القرن الماضي ، والمرأة

التي التقياها كانت قادمة من مدينة دريزدن الألمانية المعروفة بكثرة وقدم كنائسها التي صمدت أثناء الحرب الكونية الثانية وعلى مر الزمن والتاريخ... كانت امرأة رائعة حفظها سبحانه مثل قديسة فاتنة الجمال رغم تقدمها في العمر ، فظهرت وكأنها أميرة بقلب يخفق بالحب والرحمة كقلب السلحفاة، يبقى ينبض حتى بعد ذبحها لعدة ساعات!...

عند ذلك الصباح الذي كانت نسائمه عذبة، رقيقة وترقص طربًا - هكذا وجد الصباح آدم - وهو يشعر بلحظات من السعادة يعجز عن وصفها بعد أن غرق فيها وفي كل أجزائها من قمتها حتى نخاعها، بصخبها وهدوئها، سعادة لا مثيل لها، كسعادة المجنون في أوج غروره رغم تأخره وزوجته عن موعد عملهما... ظل يشعر بتلك اللحظات الفريدة من عمر الإنسان وسط كل ما يدور حوله من ألم وعذاب ، لحظات يعرف حسابها جيدًا ، لو مرَّت سوف لن تعود ، وإن عادت ، ستكون أقصر من سابقتها ، لأنها لحظات من عمر الزمن الراهن!

كانت المرسيدس السوداء سيارتهما التي يقودها بنفسه تهدر مسرعة ، وزوجته بجانبه يشع وجهها فرحًا وطيبة وهي تنظر لزوجها بشجون عاطفي منقطع النظير وتعيش لحظات سعادته التي تجهل أسبابها معه بكل عنفوان وحرص وطيبة، حتى ظهر على مرمى من نظرهما امرأة عجوز واقفة بقلق على رصيف الشارع، ترتكز على عصا طويلة مصقولة انعكست عليها أشعة

الشمس فظهرت وكأنها من العاج ، تشير بيدها وتلوح بعصاها العاجية عاليًا لإجبارهما على التوقف... همست أنهر لزوجها بلهجة ود وبنبرة لا تحتمل الاعتراض في الوقت ذاته أن يتوقف ويسألا المرأة عن حاجتها، تردد قليلاً وشرع قائلاً:

- لكننا سنتأخر أكثر.

- أرجوك توقف.

كرَّر امتعاضه بطريقة مقتضبة أخرى:

- الوقت!

- يذهب إلى الجحيم.

- ماذا عن عملنا؟!

- إلى الشيطان... وأردفت بنبرة رصينة لا تقبل الشك : كل ما يهمني الآن أن أعرض مساعدتي على تلك المرأة لعلها في مأزق!

- حسننًا.

توقف أمام العجوز مباشرة وهو ينظر إلى ساعته كأنه يناجي نفسه بسخرية، فرأى المرأة بوضوح تام: شقراء الشعر ، بيضاء البشرة، زرقاء العينين ، طويلة ومنتصبة بقامتها كأن الدهر الطويل الذي عاشته لم يمر عليها، وقدر عمرها بالثمانين وربما يزيد قليلاً.

عندها لم تتوان أنهر ولم تنتظر ، أنزلت زجاج نافذتها وسألت المرأة بصوت دافئ يقطر مودةً وحنانًا:

- سيدتي... كيف لي أن أساعدكِ؟

بلهجة واثقة:

- أنا سائحة وأريد أن أصل إلى مركز المدينة... لم أحصل على سيارة أجرة.. بعد برهة توقف أخذت فيها نفسًا عميقًا ، شرعت مستطردة: ماذا أريد أن أقول؟ نعم، تذكرت، هل لكما أن تقلاني معكما إلى مركز المدينة؟!

نظر إلى زوجته بحدة علامة عدم الرضا ، فتلافت نظراته وهي تفتح باب السيارة، ترجلت منها بسرعة وهي تقول للعجوز:

- طريقنا واحد سيدتي.

نبر زوجها في نهاية المطاف معقبًا:

- هذا صحيح.. فمكان عملنا أيضًا يقع في مركز المدينة ونحن متوجهان له.. وغيّر من نبرة صوته فجعلها أقرب إلى المناجاة والتسبيح: بسرور سيدتي، تفضلي، سوف لن نخسر شيئًا... وهو يخزر زوجته ويصليها بنظرات شرسة دلالة عدم الاقتناع بما كانت تفعله !... وأنهر منهمكة ومشغولة بالعجوز وهي تشد على صدرها وكتفها حزام الأمان بعد أن عرضت عليها أن تجلس في الأمام...

رفضت المرأة بطيبة نادرة معتذرة عن قبول عرضها بقولها:

- أنتما مازلتما في مقتبل العمر والحياة مقبلة عليكما بانفتاح وروعة، وما عليكما سوى الاندفاع نحوها لالتقاط دقائقها... ثم استطردت بحنية: لا تجعلا هذه الدقائق الثمينة تذهب هكذا سدى دون حب وسعادة وأنتما أهلٌ لها... أما عني فأفضل الجلوس في الخلف فهذا يعني نهاية المطاف وعلامة من علامات الرحيل...

ثم ساد الصمت وزوجها لم يتوان ؛ انطلق مسرعًا متوجهًا إلى مكان عمله.

فبادرته العجوز بسؤالها مستوضحة:

- أرجو ألا أكون مخطئة ، لقد قلت منذ قليل بأنكما تعملان في مركز المدينة أليس كذلك؟

- هذا صحيح سيدتي!

بجرأة مخلوطة بالعذوبة:

- عذرًا على تطفلي ، لكن لي فضول بأن أعرف في أي مجال تعملان؟

باهتمام مبالغ فيه:

- في مجال الصياغة وبيع الساعات اليدوية... ثم أردف بتملق ملحوظ: نملك متجرًا صغيرًا هناك، نديره أنا وزوجتي منذ سنوات عديدة... قال ذلك وهو يزر زوجته بنظرات جانبية كالسمكة ويغمزها.

ناحت العجوز متأسفة:

- آه لقد اقتنيت يوم أمس ساعة جديدة ، لو كنت أعرف بأنني سألتقي بكما لاشتريتها منكما.

برصانة ورزانة ردَّ عليها:

- لا عليكِ سيدتي ، فكل شيء قضاء وقدر ، هكذا أعرف الحياة وأفسرها، والرزق يأتينا بمشيئة علاّم الغيوب من دون أن نعلم!

ـ بالضبط يا بُني، ما تقوله عين الصواب... وهي تطلق زفرات مقلقة، سمعتها أنهر التي تجلس أمامها مباشرةً بأنها صادرة من رئة العجوز وكأنها مصابة بالربو، فبادرتها قلقة بسؤال: هل سيدتي تعانين من الربو؟

ـ لا داعي للقلق، فمن يعيش ما رأيته في حياتي يُصاب بأكثر من مرض، والربو شيء لا يستحق الوقوف عنده كثيرًا، خاصة وأنا عاصرت الحرب العالمية الثانية بكل آلامها، مرارتها وعذاباتها، لذا أشكركما على شعوركما الطيب نحوي... وقبل أن تلوذ بالصمت رددت: هذا لطف كبير منكما وجميل لن أنساه بسهولة.

همس الزوجان دون تردد، بثبات وبصوت واحد وكأنهما متفقان:

ـ لا داعي للشكر.

في هذه الأثناء وصلوا إلى مكان عملهما وترجل زوجها مسرعًا إلى متجرهما وأبقى زوجته تساعد العجوز، والأخيرة مازالت تغمغم بزفرات لا تنقطع كالشخير...

ما أن فتح باب المتجر تفاجأ بدخول زوجته بصحبة العجوز... ولم تمض دقائق حتى كانت العجوز قد اتفقت مع أنهر على نيتها شراء عقد صغير من الذهب. ذُهل من سرعة رد الجميل وهو مازال لم يعرض للزبائن بضاعته في واجهة المتجر ـ هذا ما راودته قرارة نفسه ـ شعر بأن السعادة التي كانت تغمره قبل دقائق معدودة لها دوافعها وأسبابها رغم جهله لها، فارتفعت ضحكاته الرنانة وبدأت خطواته تكون سريعة كمن يفر راكضًا... لكنه امتعض مجددًا فجأة

وانقلبت سحنته وتغير مزاجه المرح الفرح الذي كان للتو عاليًا، عندما سمع المرأة وهي تقول وتكرر جازمة:

- أين أنا الآن؟

ثم تساءلت عن الوقت، وعن سبب وجودها في هذا المتجر، وما شابه من هذه الأمور التي جعلته يشعر بالريبة من قواها العقلية، وما أقلقه أكثر سؤالها عن سعر العقد أكثر من مرة رغم تلقي الجواب من زوجته بكل وضوح!... ثم فجرَّت العجوز أعصابه وأزعجته كثيرًا بقولها:

- أنا لا أملك الآن محفظة نقودي، لقد تركتها في الفندق الذي أسكن فيه... وشرعت: لا أعرف بالتحديد الطريق الذي يؤدي إليكما! ولا حتى كيف أرجع إلى هنا مرةً أخرى، فأنا هنا وكما قلت مجرد سائحة، لم أصل إلا قبل أيام قليلة!

تدخلت أنهر بصدق حميم كعادتها:

- نستطيع أن نلتقي في نفس المكان الذي رأيناكِ فيه مذ قليل وذلك عند الساعة الثانية بعد الظهر، وهو الوقت الذي نتوجه فيه بعد استراحة الغداء مجددًا إلى المتجر، ها... ما رأيكِ سيدتي؟

- عظيم، اتفقنا إذن، أضافت: لكن لي رغبة أتمنى أن تسديها لي!

- بكل سرور... أجابتها أنهر.

- خذي خاتمي هذا لتنظيفه، وعندما نلتقي بعد الظهر آخذ الخاتم والعقد معًا!.

- بالتأكيد... سأجعله يلمع كالماس تحت الشمس.

نهضت العجوز بقامتها الطويلة الثابتة وغادرتهما... وزوجها يشعر بعدم الرضا لعدم تأكده من لقائها مرة أخرى كما اتفقا، وما أقلقه بالتحديد، إحساسه بضعف قدرة المرأة العجوز على التفكير والتواصل والتذكر... فرنت كلماتها التي كررتها حول السعر ومكان وجودها والوقت كالطنين في رأسه، فأعطاه شعورًا غريبًا غير مستقر، لا يؤكد له قدومها مجددًا وهو يردد على زوجته كلمات اللوم لطيبتها المفرطة مع الآخرين حتى ولو كانت على حساب حياتهما... ولم يعد يشعر بلحظات الصباح السعيدة ولا بنسائمه العذبة الرقيقة، وكل ما كان يفكر فيه الربح الذي سيجنيه لو اقتنت العجوز العقد، خاصة وهو يقلب خاتمها بيده اليمنى، فوجده ليس إلا خاتمًا عاديًا من الفضة لا يساوي حقه أكثر من خمسة عشر يورو!... وأنهر تنظر له وتهز رأسها لمغالاة زوجها وسوداوية أفكاره وتصوراته وتسرعه في الحكم على الآخرين دون عناية أو تفكير عميق.

حلَّتْ الساعة الثانية بعد الظهر وهما في سيارتهما كالعادة، يسترق زوجها النظر إلى الطريق على غير عادته بقلق محموم، يتلهف لرؤية المرأة العجوز كما رآها عند الصباح.... وما أن استدار نحو اليمين فوجدها تنتظر كما وعدت بنفس الهيبة والملابس، لم يصدِّق نظره، لكن قلبه أصبح يخفق بالسعادة مجددًا طائرًا من الفرح.

ركبت العجوز السيارة بمساعدة أنهر وهي تهمهم معتذرة عن الإزعاج الذي سببته لهما، وبكلمات جاءت أقرب إلى الدعاء...

لم تمضِ إلا ثوانٍ قليلة حتى نقدتهما العجوز خمسمائة يورو ثمن العقد وتنظيف الخاتم، وطلبت من زوجها برجاء خالص أن يسمح لزوجته أن ترجعها إلى فندقها بسيارتهما، وافق بكل ممنونية وهو ينظر إلى النقود الورقية ويعدها بحرص ثم يدسها في خانتها التي يعرفها جيدًا بعد أن رصها.

في الطريق سألت أنهر العجوز مستفسرة عن سبب خروجها عند الصباح... بعنفوان وصدق أجابتها:

ـ الحقيقة، لم أكن أملك هدفًا محددًا؟

بذهول:

ـ هذا يعني، لم يكن لديكِ عمل أردتِ القيام به في مركز المدينة؟!

ـ لا تفهميني خطأ، أنا لم أقصد ذلك...

ثم سكتت متأملة، سارحة وكأنها في عالم آخر!...

أعادت سؤالها باستغراب:

ـ كيف يعني؟ ليس لديك هدف وفي نفس الوقت تقولين لا تفهمينني خطأ!... أرجو أن توضحي لي ذلك سيدتي إن رغبتِ...

برزانة:

ـ ما أردته فقط، كيف أشرح لكِ ذلك؟ أعني لم يكن لدي شيء محدد!

ـ معذرةً لم أفهم!

- آه... وهي تطلق شخيرها، يقصد، زفيرها الصادر عن رئتها المتعبة: ما أريد أن أقوله هو إني كنت قد قررت عند الصباح أن أزور الكنيسة فقط...

فقاطعتها أنهر شاهقة:

- تزورين الكنيسة فقط؟!

بصوت هزيل أقرب إلى الهمس:

- نعم يا فتاتي الغالية، أردت زيارة الكنيسة، وأشعل شمعة أتفاءل بها، وهذه عادة أمارسها منذ زمن طويل... وقد قمت بذلك بعد أن غادرتكما في الصباح ورجعت إلى الفندق، لكنني وفي متجركما عثرت على هذا العقد الجميل الذي كنت أمتلك مثله يومًا ما، وأهديته إلى امرأة كانت تقيم معي في نفس الغرفة في المستشفى قبل عام تقريبًا، وعندما وجدته عندكما قررت اقتناءه في الحال...

ثم عبرت متابعة بسجية عفوية وبحساسية مفرطة كي لا تؤذِ فيها مشاعر أنهر قائلة:

- لا تعتبري شرائي للعقد على أنه رد للجميل، فأنا لا أفكر بهذه الطريقة المباشرة... استطردت: يكفي بأن العقد سيجعلني أتذكركما دائمًا وما فعلتماه معي له أكثر من معنى واعتبار، ناهيك عن تأخركما عن موعد عملكما وهو مكان رزقمكا وما فعلته أنا لا يساوي القيمة الإنسانية التي تلقيتها منكما.

ثم نوهت بشغف مبتعدة عن الموضوع:

- لكِ يا فتاتي الحسناء طيبة ساحرة تسع العالم كله، وقلب رحيم كقلب السلحفاة يبقى ينبض بالحياة حتى بعد ذبحها لساعاتٍ طوال!

مندهشة:

- عجبًا!

- ولِمَ العجب؟

- لأن زوجي قد قال عنكِ وردَّد الجملة ذاتها بأنكِ تملكين قلبًا رحيمًا كقلب السلحفاة!

ضحكت أنهر بعفوية رائعة كالأطفال، شاركتها العجوز الضحك، وتحولت فجأة رناتهما وانقلبت إلى قهقات عالية وكأنهما يشاهدان فيلمًا سينمائيًا كوميديًا... بعد أن نست العجوز زفرات رئتها وصعوبة تنفسها وهامت في رحاب من المتعة غير المنتظرة أو المقصودة تمامًا كأنهر، خاصة بعد أن اعترفتا الواحدة للأخرى بأنهما أخوات في البرج، إذ تعودان كلاهما إلى نفس الطبيعة التي جبلهما الله عليهما، برج القوس الحازم، الحاسم، الصادق، الطيب والرحيم... واستمرت أصوات القهقات تُسمع عن بُعد كصهيل الخيول النافرة التي ترفض أن تروض، فكان منظرهما يجسِّد قول الشاعر العربي إلياس أبو شبكة "لي مهجة كدموع الطفل صافية" وكلمات الروائي العربي حنا مينة تعشعش في قلوب أصحابنا، أبطال روايتنا لسموها "يجب أن نفرح وإلا انهزم الإنسان فينا".

ومقولة الكاتب العالمي أرنست همنغواي هي الأصلح هنا لختام روايتنا وما آل إليه حال أبطالنا الذين قرروا محض إرادتهم

الواعية أن يعيشوا الحياة وليس التاريخ "تستطيع الحياة أن تقهر الإنسان، لكنها تبقى عاجزة عن تدميره".



هيثم نافل والي

٢٣ آذار ٢٠١٨

ميونخ ، ألمانيا

المؤلف في سطور

- روائي وقاص عراقي ، من مواليد بغداد ١٩٦٥م.
- درس الهندسة الزراعية في جامعة بغداد
- هاجر مع زوجته إلى ألمانيا عام ١٩٩٠م.
- أسَّس مجلة باللغة العربية بعنوان (ميمرا الكلمة) في ميونخ عام ١٩٩٩م ، وترَّأس تحريرها.
- نشر مجموعة كبيرة من القصص القصيرة والحكايات والمقالات في مواقع ومجلات عربية عديدة منها : مجلة آفاق مندائية ، مجلة العهد ، مجلة أقلام الثقافية، مجلة أصوات الشمال ، الناس ، أدب ، شبكة حنين ، وطيور دجلة ، وغيرها الكثير.
- له محاولات عديدة في الرسم.
- أقام أثناء دراسته في الجامعة ثلاثة معارض رسم تشكيلي.
- أسَّس في عام ٢٠١٤ م رابطة للأدباء والفنانين والمثقفين المندائيين وعمل في لجنتها التحضيرية عامين.
- أسَّس في عام ٢٠١٧ منتدى تحت اسم "منتدى الوالي الحُر للقصة القصيرة" يشجِّع فيه كل المواهب الشابة من خلال صفحته الإلكترونية الخاصة.

- الإصدارات :

- نتاج السنين : مجموعة قصصية. مطبعة فاكَنر ، ميونخ ٢٠٠٥
- الشك وأشياء أخرى : مسرحية. مطبعة فاكَنر ، ميونخ ٢٠٠٧
- الدين والنبي في التاريخ : دراسة. مطبعة فاكَنر ، ميونخ ٢٠١٠
- الموتى لا يتكلمون : مجموعة قصصية. شمس للنشر والإعلام ، القاهرة ٢٠١٤
- الهروب إلى الجحيم : مجموعة قصصية. شمس للنشر والإعلام ، القاهرة ٢٠١٤
- عجائب يا زمن : مجموعة قصصية. شمس للنشر والإعلام ، القاهرة ٢٠١٥
- أنْهُر بنت الرافدين : رواية. شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٦
- طاعون الشرق : رواية. شمس للنشر والإعلام ، القاهرة ٢٠١٦
- الوهم : رواية. شمس للنشر والإعلام ، القاهرة ٢٠١٧
- امرأة من الشرق: رواية. شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٧
- العودة : رواية. شمس للنشر والإعلام ، القاهرة ٢٠١٨
- من داخل الزنزانة : مجموعة قصصية. شمس للنشر والإعلام ، القاهرة ٢٠١٨

- إصدارات تحت الطبع :

- تأملات في عالم الإنسان : مجموعة مقالات. شمس للنشر والإعلام
- النهاية : مجموعة قصصية. شمس للنشر والإعلام

- البريد الإلكتروني : haitham65@hotmail.de



(+2) 01288890065

www.shams-group.net